163

السُّلْطَانُ

سَيْفُ الدِّينِ قُطُزْ

بطل عين جالوت وقاهر المغول



منصور عبد الحكيم

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

السلطان سَيْفُ الدِّينِ قُطُزْ

الملك المظفر سيف الدين قطز واسمه الحقيقي محمود بن ممدود بن خوارزم شاه ولقب بسيف الدين (توفى ٢٤ أكتوبر ١٢٦٠م) هو بطل عين جالوت قاهر التتار المغول أعداء الحضارة والبشرية إنه السلطان المصري ذو الأصل المملوكي، تولى الملك سنة ٦٥٧هـ ويعتبر أبرز ملوك مصر على الرغم أن فترة حكمة لم تدم سوى عام واحد؛ إلا أنه نجح في إعادة تعبئة وتجميع الجيش المصري الذي استطاع أن ينقذ التراث البشري بإيقاف زحف المغول الذي كاد أن يقضي على الدولة الإسلامية والحضارة الإنسانية. فهزمهم الجيش المصري هزيمة منكرة في معركة عين جالوت، ولاحق فلولهم حتى حرر الشام وقضى على أسطورة الجيش اذي لا يُقهر ولا يُهزم.. وتقرأ عن رؤيا هذا البطل وهو صغير السن للرسول صلى الله عليه وسلم والتي بشره فيها بجلوسه على عرش مصر وانتصاره على التتار المغول..

واسم قطز أسماه له التتار حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم له.. ومعنى قطز بلغتهم المغولية (الكلب الشرس). وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم. قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق.

عندما تولى قطز الحكم كان الوضع السياسي الداخلي متأزمًا للغاية، فقد جلس على كرسي الحكم في مصر خلال عشرة أعوام ستة حكام وهم: الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولده توران شاه، شجرة الدر، الملك المعز عز الدين أيبك، السلطان نور الدين علي بن أيبك، وسيف الدين قطز. كما كان هناك الكثيرون من المماليك الطامعين في الحكم، ال[illegible] التنازع عليه.

كما كان هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحمل[illegible]كررة، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من حكام الشام، ومن جراء [illegible]راعات على المستوى الداخلى. فعمل قطز على إصلاح الوضع في مصر خلال إعداده للقاء التتار.

لما عاد قطز منتصرا من عين جالوت إلى مصر تمالأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابي والصالحية ودفن بالقصير، وكان قبره يزار. فلما تمكن الظاهر بيبرس من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس، وكان لا يعرف بعد ذلك وكان مقتله يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ رحمه الله.. إنه كتاب جدير بك ان تقرأه عن هذا البطل الذي لن ينساه التاريخ الإسلامي.

I.S.B.N. 978-977-376-603-0

9789773766030

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

W.Salama 010 15 17 873

السُّلْطانُ سَيْفُ الدِّين قُطُزْ

بطلُ عَيْنِ جالوتْ وقَاهِرُ المغُولِ

◆

منصور عبد الحكيم

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١٠٤) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾

(آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥).

إهداء

إلى روح البطل السلطان المُظَفَّر سيف الدين قطز قاهر المغول وبطل عين جالوت الذى قاد الأمة فى أحلك سنواتها ونهض بها فى خلال شهور قليلة، وأخلص عمله لله فنصره واغتالته يد الغدر.

المؤلف

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

خلق الخلق وقدر الأرزاق فلم ينس أحداً سبحانه وتعالى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ولا ندّ له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، خاتم الأنبياء والرسل صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

ثم أما بعد..،

فالملك له وحده ومن أجل الملك والحكم فى الدنيا أريقت الدماء واشتعلت الحروب على مر التاريخ البشرى، بل وحتى تقوم الساعة والصراع لا يزال محتدماً بين البشر على حكم الدنيا، رغم اليقين التام أن هذه الدنيا بما فيها ومن فيها ومن عليها فانية وأن الملك له وحده، له الملك وله الحكم وإليه ترجع الخلائق وهم يحتكمون إليه يوم الحساب.

ويأتى هذا الكتاب استكمالاً لما بدأنا من إصدارات سابقة عن ملوك ورؤساء غيروا تاريخ الأمم وكان لهم شأن فى التاريخ قديماً وحديثاً.

ومن هؤلاء المُظَفَّر سيف الدين قطز - رحمه الله تعالى - الذى حقق نصراً غالياً عظيماً على المغول وأوقف زحفهم على الديار المصرية بعد أن قضوا على الخلافة الإسلامية العباسية واحتلوا معظم الدول الإسلامية

والعربية وأوشكوا على القضاء على الأمة الإسلامية كلها.

لقد كانت الديار المصرية آخر المحطات فى الغزو التتارى المغولى للعالم الإسلامى الذى امتد من الشرق الآسيوى، حيث تم القضاء على الإمبراطورية الخوارزمية ثم الدولة الإسماعيلية ثم الدولة العباسية ثم الدولة الأيوبية فى الشام ولم يتبق إلا الدولة المملوكية الحديثة التى وُلدت فى الديار المصرية والتى قامت على أنقاض الدولة الأيوبية التى أسسها البطل صلاح الدين الأيوبى.

جاء المغول بقيادة زعيمهم هولاكو سفاك الدماء وحفيد سفاك الدماء جنكيز خان يتوعد المماليك وسلطانهم قطز الجالس حديثاً على عرش الديار المصرية، يطلب منه الاستسلام المهين والخضوع له دون قيد أو شرط.

وقد استطاع هولاكو قتل من عصاه من أمراء الدولة الأيوبية فى الشام بطريقة مهينة وبعد عذاب شديد.

وكانت حال الديار المصرية لا تتحمل مقاومة المغول، فالدولة الوليدة من المماليك كانت فى صراع على السلطة والحكم وقد قتل مؤسسو تلك الدولة بعد فترة حكم وجيزة، فقد قضى على شجرة الدر وعز الدين أيبك ثم عزل ابنه المنصور واختار المماليك قطز ليكون السلطان والزعيم لمواجهة خطر المغول المدمر.

واستطاع السلطان قطز توحيد ما لديه من صفوف المماليك والشعب المصرى تحت قيادته، وكان قطز وقتها من المماليك البحرية وهم جنود السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب.

وسوف نستعرض فى هذا الكتاب أهم المراحل فى تاريخ العالم الإسلامى من خلال سيرة هذا البطل المظفر قطز القصيرة والذى تعرَّض للاغتيال من رفقاء الدرب عقب انتصاره على المغول وفى طريق عودته

لمصر منتصراً، فكانت حياته وفترة حكمه القصيرة ملحمة تاريخية خلدها التاريخ الإسلامى وشهد له بالفضل.

نسأل الله أن يعيننا على إخراج هذا الكتاب على الوجه الذى يرضيه عنا ويتقبله منا وأن يكون فى ميزان حسناتنا، يوم القيامة يوم أن نلقاه غير خزايا ولاندامى، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

منصور عبد الحكيم

القاهرة - ١٠/١٠/٢٠١٠

mansor_2455@yahoo.com

1

نشأة دولة المماليك

فى مصر والشام

- الأصول والنشأة وسبب التسمية.
- تدريب وتربية المماليك.
- العلاقة بين المملوك وسيده وأستاذه وعلاقة المماليك فيما بينهم فى الدولة المملوكية.

الأصول والنشأة وسبب التسمية

البحث عن أصول المماليك وماهيتهم أمر ضرورى للتعرف على شخصية بطلنا السلطان قطز.

فأصل المماليك من الرقيق الذين يتم شراؤهم كعبيد لخدمة الملوك والأمراء، لكن اقتصر عملهم بعد ذلك على أمور القتال والجندية منذ العصر الأموى، حيث تم شراء بعض الرقيق من الأتراك من بلاد ما وراء النهر (بلاد فارس القديمة) وتم استخدامهم كجنود ولكن لم يطلق عليهم اسم المماليك وإنما أطلق عليهم الترك(١).

وزاد تعدادهم فى العصر العباسى زمن الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد، حيث كانت أمه «أم ولد» جارية من الترك وكان الصراع القديم بين العرب والفرس، حيث إن العرب وقفوا إلى جانب أخيه الأمين فى صراعه مع أخيه المأمون الذى وقف أخواله من الفرس بجانبه.

فلما تولى المعتصم الخلافة زاد من عدد الجنود الأتراك حتى صارت لهم القوة والغلبة فى بغداد وأثاروا سخط الأهالى فبنى لهم المعتصم مدينة (سُرَّ من رأى) سَمَرَّاء لتكون مقرّاً لهم.

وازداد نفوذ القادة والجنود الترك فى الدولة العباسية حتى صار تعيين الخليفة لا يتم إلا بموافقتهم ورضاهم، بل وتطور الأمر إلى قتلهم لبعض خلفاء بنى العباس وعزل البعض حتى انتهى الأمر بسقوط دولة الخلافة العباسية على يد هولاكو المغولى(٢).

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

(٢) اقرأ كتابنا «هولاكو مارد من الشرق» ففيه المزيد عن هذا الموضوع وغيره، الناشر دار الكتاب العربى.

وخلاصة الأمر أن اسم المماليك اصطلاحا هم أولئك الرقيق - الأبيض غالبا - الذين درج المسلمون على استحضارهم من أقطار مختلفة وتربيتهم تربية خاصة، تجعل منهم محاربين أشداء، استطاعوا فيما بعد أن يسيطروا على الحكم فى مصر والشام والحجاز وغيرها قرابة الثلاثة قرون من الزمان ما بين «٦٤٨ ــ ٩٩٢ هـ» «١٢٥٠ ــ ١٥١٧م».

وكلمة (مماليك): جمع مملوك، وهو الرقيق الذى يباع ويشترى، وهى اسم مفعول من الفعل (ملك) واسم الفاعل (مالك) والمملوك هو عبد مالكه، ولكنه يختلف عن العبد الذى بمعنى الخادم.

كما أن كلمة مماليك تختلف فى معناها عن كلمة موالٍ التى مفردها (مولى) والتى تعنى - اصطلاحاً - عند المؤرخين المسلمين: كلٍّ من أسلم من غير العرب، فالموالى قد يكون أصل بعضهم من أسرى الحروب الذين استرُقوا ثم أُعتقوا، أو من أهل البلاد المفتوحة الذين انضموا إلى العرب فصاروا موالى بالحلف والموالاة.

والرق وأسباب الاسترقاق قديم قدم الإنسان، عرفته الأمم الغابرة من سكان ما بين النهرين، ووادى النيل، واليونان، والرومان، والعرب فى الجزيرة العربية، وأقرته معظم الديانات كاليهودية والنصرانية.

أما الإسلام فإنه لم ينص على إلغائه وتحريمه صراحة، ولكنه حضَّ على تحرير الأرقاء، فى أكثر من حكم شرعى بل بلا سبب ووعد على ذلك بالجزاء العظيم على حسن معاملتهم، كما نظم العلاقة بينهم وبين سادتهم بما يجعلهم إخوانا فى الإسلام والإنسانية متحابين، يعلم كل منهم حقوقه وواجباته، حتى صار الكثير من الموالى شديدى الوفاء والإخلاص لسادتهم، والتاريخ الإسلامى ملىء بأمثلة تدل على أن المسلمين استجابوا لشرائع دينهم، فأكرموا هؤلاء الموالى والأرقاء، ووثقوا بهم، ورفعوهم إلى أعلى الدرجات، فقد تولى وردان مولى عمرو بن العاص خراج مصر، واستعمل

مَسْلَمَة بن مخلد - والى مصر وأفريقيا فى عهد معاوية بن أبى سفيان - استعمل مولاه أبا المهاجر دينار على أفريقيا عام ٥٠ هـ.

كما ولى أفريقيا عام ٧٣ هـ «تليد» مولى عبد العزيز بن مروان، وكان موسى بن نصير القائد المشهور، وفاتح أفريقيا، مولى لامرأة لخمية، (من قبيلة لخم العربية) وقيل بل مولى لبنى أمية.

كما كان طارق بن زياد وهو بربرى من قبيلة نفرة مولى لموسى بن نصير، وكان التابعى الجليل الحسن البصرى مولى لزياد بن ثابت رضي الله عنه من سبى ميسان، وهكذا كان الحال فى الاستعانة بالموالى.

وكان الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ـ ٢١٨هـ) (٨١٤ - ٨٣٣م) أول من استكثر من الموالى، حيث ضم بلاطه عددا من هؤلاء المماليك المعتوقين، ثم تلاه أخوه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) (٨٣٣ - ٨٤٣م) الذى أراد أن يحد من نفوذ جنوده من الفرس والعرب فكون جيشا أغلبه من التركمان، كان يشتريهم صغاراً ويربيهم حتى وصل عددهم إلى عشرين ألفا.

أما أحمد بن طولون والى مصر فقد اعتمد على المماليك اعتمادا يكاد يكون كلياً، حيث كان والده طولون مملوكا تركيا أهدى للمأمون عام ٢٠٠هـ (٨١٥م) فقد أحضر أحمد هذه المماليك من بلاد جنوب بحر قزوين وبلاد الديلم، حتى زادوا على الأربعة عشر ألف تركى وأربعين ألف مملوك أسود، بالإضافة لسبعة آلاف من المرتزقة وقام الأخشيديون بالسير على نفس السياسة، حتى إن محمدَ بن طغج الأخشيد مؤسس دولتهم فى مصر ٣٢٣ - ٣٥٨هـ (٩٣٥ - ٩٦٩م) جعل منهم جيشا يضم أربعمائة ألف من الديلم والترك، بالإضافة لحرسه الخاص الذى تجاوز الثمانية آلاف.

أما الأيوبيون فإن استكثارهم من المماليك كان سببا فى قيام الدولة المملوكية، حيث إنهم قاموا منذ بداية دولتهم (٥٩٧هـ - ١٢٠٠م)، بجلب

أعداد كبيرة من المماليك الصغار عن طريق النخاسين الذين كانوا يحضرونهم من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز القفجاق، وما وراء النهر، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان، وحتى من البلاد الاوروبية، حيث ازدهرت حركة تجارة النخاسة فى أوروبا قبل عصر المماليك، ومارسها البنادقة والجنويون، فكانوا يشترون المماليك من سواحل البحر الأسود ويبيعونهم فى مصر، فبلغ من كانوا يبيعونهم فى العام الواحد ألفين من المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصقالبة والعرب.

وكانت أشهر أسواق بيع هؤلاء المماليك خان مسرور فى القاهرة، وسوق الإسكندرية.

والذى شجع الأيوبيين فى مصر والشام على الإكثار من هؤلاء المماليك هو ضعف شأنهم بعد وفاة صلاح الدين رحمه الله (٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م)، وانقسام الدولة بين الأيوبيين الذين لقبوا أنفسهم بالملوك فى كل من مصر، ودمشق، وحلب، والكرك، وبعلبك، وحِمْصٌ، وحماه، حيث قامت بينهم منافسات وحروب كثيرة، كما قامت بينهم من جهة وبين أبناء البيوتات الأخرى مثل آل زنكى وأهل البلاد الآخرين حروب مشابهة، مما اضطر كلاً منهم للبحث عن عصبية تحميه وقت الشدة، وتساعده فى صد أعدائه، فكان الإكثار من الرقيق الأبيض (المماليك) خير وسيلة لتحقيق ذلك وللوقوف فى وجه الصليبيين فى الشام.

ولذلك بنى لهم الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧هـ) (١٢٤٠ ـ ١٢٥٠م) المعسكرات فى جزيرة الروضة ٦٣٨هـ ١٢٤١م وسماهم بالمماليك البحرية الصالحية، واعتمد عليهم فى صد غزوة لويس التاسع بمصر «الحملة الصليبية على مصر»، وحين زاد نفوذهم السياسى بعد أن دبروا مؤامرة لخلع العادل الثانى وأحلوا الملك الصالح محله ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) ثم زاد خطرهم حتى إنهم دبروا مؤامرة لقتله عندما غضب عليهم

لإهمالهم فى الدفاع عن دمياط أمام لويس التاسع عام ٦٤٧هـ، ولولا مرضه الذى توفى فيه لما نجا من شرهم الذى طال ابنه توران شاه. وانتهى باغتياله كما سيأتى ذكره فيما بعد.

وكما ذكرنا فإن استخدام المماليك فى المجتمع الإسلامى يرجع إلى ما قبل عهد المعتصم بكثير، كما يرجع استخدامهم فى الوظائف الكبرى بالدولة إلى أوائل أيام العباسيين، ومن الأدلة على ذلك ولاية يحيى بن داود الخرسى إمارة مصر (١٦٢ ـ ١٦٤هـ) (٧٧٨ ـ ٧٨٠م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور، ويحيى هذا مملوك تركى وصفه المنصور وصفا ينبئ بكثير عما وصل إليه بعض المماليك من الترك فى صدر الدولة العباسية، إذ قال «هو رجل يخافنى ولا يخاف الله»(١).

ويذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) أن طرسوس عمرت على يد أبى سليم فرج الخادم التركى(٢).

وكذلك فإن علاقة المماليك بمصر أبعد عهدا من قيام دولتهم بها، إذ اتخذ أمراء الدولتين الطولونية والأخشيدية جنودا من المماليك، واتخذ الفاطميون المماليك الذين اشتروهم من الأسواق، أو أسروهم فى الحروب طوائف أسموها «مماليك»، ولكن هؤلاء وأولئك دخلوا الجيش فى حدود ضيقة، فلم يزيدوا عن فرقة الحرس الخاص بالأمير أو الخليفة، واستمروا فى تلك الحدود الضيقة إلى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أكثر من شراء المماليك وجعلهم أمراء وفرساناً وجنودا وكان هذا أساساً لقيام دولتهم بعد موته.

إذن فلفظ مملوك لم يكن جديداً أو غريباً على مصر حينما قامت دولة المماليك الأولى بها.

---

(١) انظر كتاب الولاة ـ للكندى.

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك ـ للطبرى.

فالأصول التاريخية للمماليك تعود بالطبع إلى نظام الرق ووجود العبيد سواء بالشراء أو عن طريق الأسر فى الحروب، ثم استخدامهم فى الخدمة وأمور الحياة، فى المجتمع الإسلامى عامة، ثم استخدامهم فى الجيش منذ أيام المعتصم فصاعداً.

ولابد هنا من الرجوع إلى الأصول العامة للرق فى الدول القديمة فى الشرق والغرب، حيث يتضح من تاريخ تلك الدول أن الوثنيين القدماء واليهود والنصارى والمسلمين قد تملكوا الرقيق سواء، وإن الدساتير اليونانية والرومانية القديمة، والديانات الكتابية لم تحرم وجود الأرقاء، وأن من أسباب الرق الحرب والفقر.

ولما كانت الحروب والفتوح والانتصارات تملأ صدر الإسلام، فمن الواضح أن أعداد الرقيق من الأسرى أضحت لا تحصى، وان الرقيق صار مختلطا متنوعا تنوع البلاد التى فتحها المسلمون.

وكانت تعاليم الإسلام تقضى بأن من استرق فى الحرب صار جزءا من الغنائم مثل الآلات الحربية والخيل والنقود من حيث التملك والبيع والشراء، فإن امتلاك الرقيق لم يقتصر على الخلفاء والولاة والمحاربين، بل صار فى متناول أيدى الذين يستطيعونه عن طريق الشراء والثروة، ولذا انتشرت تجارة الرقيق فى الدولة الإسلامية، كما انتشرت فى غيرها من الدول. وتنوع الأرقاء كذلك فمنهم السود، ومنهم البيض أوالمماليك الذين أصبحوا أرستقراطية العبيد نظراً لعراقة جنسهم وتميز لونهم الأبيض!!(١).

ولهذا كان الأتراك والصقالبة أشهر الرقيق الأبيض فى المجتمع الإسلامى، غير أنه يبدو أن الصقالبة كانوا موضع التفضيل بدليل قول صاحب كتاب يتيمة الدهر «ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى»(٢).

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ لآدم متز ـ ترجمة أبو ريدة.

(٢) انظر كتاب يتيمة الدهر ج٤ للثعالبى، نيسابور.

غـيـر أن الأرقـاء من الأتراك أقـدم عـهـداً بالدولة الإسـلامـيـة من الصقالبة، إذ وصل المسلمون بلاد تركستان وما وراء نهرى سيحون وجيحون وفتحوها على يد قتيبة بن مسلم أواخر القرن الهجرى الأول أى القرن السابع الميلادى، وعندئذ صار للرقيق التركى مكانة ممتازة فى البيوت الإسلامية، لوفائهم وشجاعتهم وتمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم. وكثر استخدامهم غلمانا وخدما قبل أن يعرف المسلمون شيئا عن الصقالبة وبلادهم[1].

وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر فى الحروب أو عن طريق اختطافهم أطفالاً من بلادهم.

وكان الغلمان من المماليك فى تلك العصور قد دأب الحكام والقادة على إرسالهم هدايا إلى الخليفة أو الوزير، حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة فى الأقاليم التركية، ولهذا صارت أقاليم ما وراء النهر مصدراً هاماً للرقيق الذى أضحت تجارته أعظم مهنة.

وصارت مدينة وخَّان فى أعالى نهر جيحون مركزاً لقوافل الرقيق من الترك الآتية من أواسط آسيا[2].

وكان أهل خوارزم يجلبون الأتراك أو يسرقونهم من رعاة السهب (الاستبس)، ويربونهم تربية إسلامية ثم يصدرونهم بعد ذلك إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى. وهكذا اتخذ أهلها ذلك صناعة لهم يعيشون منها.

وكذلك كانت من قند سمر ونيسابور ومرو، حيث بلغ ثمن الغلام أو الجارية من الترك ثلاثة آلاف دينار[3].

---

(١) انظر صبح الأعشى ـ القلقشندى.

(٢) انظر كتاب صورة الأرض ـ لابن حوقل.

(٣) انظر كتاب صورة الأرض ـ لابن حوقل.

وعلى بحر قزوين غدت ميناء باب الأبواب أو الدربند، عاصمة أذربيجان مركزاً هاماً لتجارة الرقيق الوارد من الأراضى الشمالية[١]. وطرق القوافل التى حملت أسراب ذلك الرقيق سواء من آسيا الوسطى أو تلك الأراضى الشمالية، هى الطرق التجارية المعروفة فى العصور الوسطى.

أما الرقيق من الصقالبة فطريقه الرئيسى إلى العالم الإسلامى هو الطريق الذى يبتدئ من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى اسبانيا الإسلامية، والمقصود بالصقالبة سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التى امتدت أرضها من بحر قزوين إلى البحر الإدرياتى.

واليهود مثل غيرهم من الشعوب، قد عملوا بتلك التجارة التى يرجع إليها استقرار جاليات يهودية كبيرة فى مدينة مجدبورج بسكسونيا الشرقية، وقد عادت تلك التجارة على اليهود بأرباح طائلة بدليل الضرائب الكبيرة التى فرضتها كوبلنتز وفالنشتات على كل رأس من الرقيق المار بها.

وكانت مدينة براغ فى القرن العاشر الميلادى سوقاً للرقيق المباع للبلاد الإسلامية والبيزنطية عن طريق شرق أوروبا، ويلاحظ أن الرقيق الأوروبى لم يجلب كله للشرق الأوسط فحسب، بل ذهب التجار اليهود من جنوب فرنسا بجزء منه إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر، على حين ذهب آخرون من أولئك التجار من جنوب إسبانيا إلى سبتة ومنها إلى مصر عبر بلاد المغرب ثم إلى الشام والعراق.

ومن أشهر المماليك الذين حققوا إنجازات دلت على أن المماليك كانوا أهل سياسة وحرب حتى قبل تكوين دولتهم فى مصر، أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر، فقد كان طولون مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد السامانى فى جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م).

(١) المصدر السابق ـ والدربند تعنى بالفارسية مضيق فى الجبل على بحر قزوين.

وتدرج طولون فى حياة المماليك بالمجتمع العباسى حتى صار رئيس حرس الخليفة وتمكن من تربية ابنه أحمد تربية عسكرية إسلامية أهلته لأن يصبح حاكماً على مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) وقد اعتمد على المماليك من أبناء جنسه التركى فى ولايته، غير أنه طمع إلى شىء من الاستقلال بمصر، ولذلك اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الأتراك فحسب، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الأحرار، فضلا عن فرق من الرقيق الأسود والديلم والروم.

ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش إلى درجة اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهى ما عرفت بمدينة القطائع.

فالمقريزى يروى فى خطته أن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، وبلغ مشترى العبيد الزنج أربعين ألفا، كما أنه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق(١). أما ابن إياس فإنه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول بأن مماليك ابن طولون من الديالمة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك(٢).

ويذكر المؤرخون أن ابن طولون قد حرر الكثير من المماليك الذين تكون منهم جيشه من القادة والجنود، ولذا يرجح أنه لم يوجد فى الجيش الطولونى مماليك كثيرون فى أواخر أيام ابن طولون، وأن عملية التحرر ظلت القاعدة فى أيام أسرته.

وكذلك سارت الدولة الأخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين فى اتخاذ المماليك الأتراك حتى إنه يقال إن مماليك محمد الأخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك، وأنه كان يحرسه عندما ينام كل يوم ألف مملوك(٣).

(١) انظر الخطط ـ للمقريزى.

(٢) انظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ لابن إياس.

(٣) انظر النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة ج٣ ـ لأبى المحاسن بن تغرى بردى.

ومن المماليك العبيد السود كان كافور الذى حل محل الأخشيد فى حكم مصر.

وفى عهد الدولة الفاطمية التى قامت على أنقاض الدولة الأخشيدية فى مصر (٣٥٨هـ ـ ٥٦٧هـ) (٩٦٨م ـ ١١٧١م)، زاد تعداد المماليك فى تلك الدولة عما كان أيام الطولونيين والإخشيديين، فقد أضاف الفاطميون بمصر نوعاً جديداً جاءوا به من المغرب وهو الصقالبة. ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الأتراك والصقالبة منذ قيام المعز أول الخلفاء فى مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثانى لكثير منهم لمناصب القيادة والولاية لأن وصولهم إلى تلك المناصب معناه أن العزيز وجدهم قوة فى الدولة، بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافا مشروعة. حتى إنه ولى مملوكه، بنجوتكين التركى قيادة الجيش، كما ولاه الشام، كما ولى دنيا الصقلبى عكا، وبشارة الأخشيدى طبرية، ورباحا السيفى غزة، وبرجوان الصقلبى إمارة القصر وهكذا صاروا قوة لا يستهان بها.

وقد أثار تفضيل الفاطميين للأتراك والصقالبة عوامل الحسد بينهم وبين المغاربة، وظهر ذلك جليًا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ = ٩٩٦-١٠٢٠م) الذى استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين[١].

ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى فى عهد الخليفة الظاهر بن الحاكم بأمر الله لميله إلى الأتراك المشارقة[٢]، فصارت قيادة الجيوش فى يد أبى منصور أنوشتكين، وهو مملوك تركى الأصل يعرف بالدزبرى، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨م)[٣].

(١) انظر الخطط ـ للمقريزى، والنجوم الزاهرة ـ لأبو المحاسن.

(٢) انظر الخطط التوفيقية ـ على مبارك.

(٣) النجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمى، فمال الى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لأن أمه أمة سوداء، وظل هذا العنصر منبع القوة فى الدولة الى آخر عهد الدولة الفاطمية.

وقد اهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم، وهم أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك فى مصر، حيث يروى المقريزى أن الأساطيل الفاطمية حملت الى مصر كثيرا من أسرى الحروب، وجرت العادة أن يحضر أولئك الأسرى إلى مكان يسمى المناخ (إشارة المكان الذى تناخ به الجمال)، فتضاف الرجال إلى الأسرى السابقين، ويساق بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعدما يعطى الوزير منهم طائفة، ويفرق الباقى لخدمة المنازل، ثم يدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين، فيربيانهم ويعلمانهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابى»، وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء بعد ذلك(١).

وقد وضع الفاطميون نظاماً تربويّاً آخر لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية، وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لأنهم عاشوا فى ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار قصر الخليفة بالقاهرة.

وقد كون الوزير الأفضل بن بدر الجمالى «وكان والده أمير الجيوش بدر الجمالى مملوكا أرمينيّاً» فرقة عسكرية أثناء عمله كوزير للخليفة المستعلى سنة ٤٨٧هـ وكانت حرساً له من المماليك تعدادها ثلاثة آلاف مملوك(٢).

وعرف الفاطميون المماليك الحجرية وكانوا يختارون من أولاد الأجناد من المماليك الأتراك والصقالبة أو غيرهم ممن امتلأت بهم جيوش الدولة الفاطمية(٣).

---

(١) الخطط ـ للمقريزى. (٢) المصدر السابق.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ومن المعلوم أن الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩هـ ـ ٢٨٩م) قد كون طائفة من الغلمان الحجرية اختارهم من المماليك الفرسان.

وهكذا امتاز عهد الفاطميين بوجود طوائف من المماليك من مختلف الأصناف والألوان، واستطاع عدد كبير منهم أن يصل إلى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم.

وبعد انتهاء الدولة الفاطمية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وقيام الدولة الأيوبية التى تأثرت بالدولة السلجوقية التركية ومماليكها، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية، وطبقتها فى مصر والشام.

فقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الأولى على المماليك من الترك، وورث هؤلاء سياستها ومراميها. وكان السلاجقة اعتقدوا أنه لايمكن للعرب والفرس أن يخلصوا فى خدمة ساداتهم الأتراك، وأنه من الأفضل الاعتماد على وفاء المماليك الأتراك الذين ربوا ونشأوا فى البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم، وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القفجاق، ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوى المملوكى السامانى.

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى وظهور الصراع بين الأسرة الأيوبية فى مصر والشام[1] زاد الطلب على شراء المماليك وظهرت طوائف من المماليك سميت بأسماء الأمراء الأيوبيين مثل المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى العادل، والأشرافية نسبة إلى الأشرف موسى بن العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة الى الصالح أيوب بن الكامل، وهكذا.

وقد تدخلت هذه الفئات المملوكية فى إقامة السلاطين الأيوبيين

---

(١) ظهر النزاع فى الأسرة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين الذى قسم المملكة الأيوبية بين أبنائه وأخيه العادل ثم كان الصراع بين العم وأبناء أخيه وانتهى بانتصار العم على خصومه من أبناء أخيه وصارت الدولة الأيوبية تحت حكمه ثم حكم أبنائه من بعده.

وعزلهم، فلما توفى العادل سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) كرهت العادلية تولية ابنه الكامل، وأرادت أخاه المعظم، فقبض الكامل بعد سلطنته على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم.

ثم توفى الكامل سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) وخلفه على عرش مصر ابنه الأصغر، وهو العادل الثانى، وبقى ابنه الأكبر وهو الصالح أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية لأن أم العادل أرادت أن يكون ابنها سلطانا، فكان لها ما أرادت، ولأن المماليك الكاملية لم يرضوا عما تم، فحالفوا الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر، حتى انتهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريبه صاحب الكرك، فقبضوا عليه فى بلبيس، وخلعوه سنة ٦٣٧هـ (١٢٤٠م)، ولم يتحرك لنصرة العادل الصغير إلا الأكراد الذين سرعان ما انهزموا على يد المماليك الكاملية والأشرافية من الأتراك[1].

وهكذا ظهر تفوق القوة المملوكية التركية على القوة الكردية فى الدولة الأيوبية، فكانت القوة المملوكية قوة لا يستهان بها تخلع السلطان أو صاحب الحق فى العرش وتأتى بمن ترضى به. حتى إن الكاملية والأشرافية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا فيما بينهم حول خلفه، حيث مال الأشرافية إلى سلطنة إسماعيل ابن العادل الأول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب، على حين مال المماليك الكاملية، وهم أقوى شوكة، إلى الصالح أيوب، فلم يسع الأشرافية إلا موافقتهم، واستدعى الصالح أيوب أخيرا لتولى السلطنة فى مصر، فدخلها سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) فكانت فترة حكمه نهاية العصر الأيوبى وبداية العصر المملوكى.

وقام الصالح أيوب منذ اعتلائه عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم، بعد أن كان الأكراد الأحرار عدة الدولة الأيوبية منذ نشأتها، وذلك

---

(١) انظر السلوك ـ للمقريزى.

لخوف الصالح أيوب من الملوك الأيوبيين ضده، وخشية من انقلاب الكاملية والأشرافية عليه إذا رجحت لديهم كفة أعدائه.

لم يستكثر من المماليك فحسب، بل أنه أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهالى من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال، حتى رأى الصالح أيوب أن يبعدهم عن العاصمة، فابتنى لهم سنة ٦٣٨هـ (١٢٤١م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس، وأسكنهم بها، كما اتخذها مقرا لملكه، وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والمؤن، وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية[١].

■ ■ ■

(١) الخطط للمقريزى ـ مصدر سابق.

تدريب وتربية المماليك

ذكرنا أن المماليك بعد شرائهم وضمهم للأمراء والملوك يتم تربيتهم وتدريبهم لضمهم للجيوش والحراسات الخاصة بالملوك والأمراء، وقد اهتم سلاطين الأيوبيين بتربية مماليكهم تربية خاصة وكذلك السلاطين فى دولة المماليك بعد انتهاء الدولة الأيوبية فى مصر.

فقد تم تعليم المماليك فنون الحرب والقتال وخصصت لهم المدن والثكنات العسكرية فى قلعة الجبل عرفت بالطباق وعددها اثنتا عشرة طبقة تشبه كل منها حارة كبيرة تشتمل على مساكن عديدة لهم، تتسع لحوالى ألف مملوك؛ ولا يسمح لهم بالمغادرة إلا للضرورة.

وقد وصف المقريزى الحياة والعادات ومواد التدريس ومراحله فقال:

«كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، منها انه إذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان، وأنزله فى طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتحدث بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ فى تعليمه أساليب الحرب، من رمي السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك فيتسع فى ذلك حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج»[1].

وكان السلاطين يشرفون بأنفسهم على تربية مماليكهم ويتفقدون

---

(١) انظر المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ لتقى الدين أحمد بن على المقريزى.

أحوالهم، ومنهم السلطان الناصر قلاوون (٦٧٩ ـ ٦٨٩هـ) (١٢٨٠ ـ ١٢٩٠م) الذى كان يهتم بطعامهم ومعيشتهم بنفسه، ويقول معتزاً بهم: «كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال ورجال وعقار، وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك».

وصدق ظنه بهم إذ قال أبو المحاسن عن مماليك قلاوون: «فكان بهم - أى المماليك ـ منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين، وقيامهم فى الغزوات معروف، وشرهم عن الرعية معكوف، وكان السلاطين ومقدمو المماليك يوصون القائمين على شؤونهم وخصوصاً على شؤون الطباق المذكورة أن يأخذوهم بالحسنى وأن يعطفوا عليهم، حيث جاء فى وصية أحد المقدمين إلى القائمين على شؤون تربيتهم: «ليحسن إليهم، وليعلم أنه واحد منهم، ولكنه مقدم عليهم، وليأخذ بقلوبهم، مع إقامة المهابة التى تخيل إليهم أنه معهم، وخلفهم، وبين أيديهم، وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم، وليكن على أحوالهم متعهداً ولأمورهم متفقداً».

وهذا لا يعنى التهاون معهم إلى الحد الذى يفسد تربيتهم، فقد كانوا يؤخذون أحيانا بالقسوة والشدة إذا ما ارتكبوا خطأ، وقد وصف المقريزى ذلك فقال: ولهم أزمة من النواب، وأكابر من رؤوس النواب، يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى، ويأخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإذا عثر أحد مؤدبيه الذين يعلمونه القرآن، أو الطواشى الذى هو مسلم إليه، رأس النواب الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة قدر جرمه.

فلذلك كانوا سادة يديرون الممالك، وقادة يجاهدون فى سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل، ويردعون من جار واعتدى ولكن هذه السياسة المتزنة فى تربيتهم بين الشدة عليهم، والرحمة بهم، لم تدم

طويلاً، وحل محلها الدلال والتهاون، خصوصاً فى الأمور الدينية، مما سبب فساد أجيالهم، فعم بذلك ضررهم على الخاصة والعامة، وأضعف شأنهم وحط من قيمتهم.

قال المقريزى فى وصف تلك التربية المتهاونة وما نتج عنها: «واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم، بل يتركون وشأنهم فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس، وأدناهم قدراً، وأخسهم، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب، ولا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب إلى مجرى الفرات بسوء الحكام، وشدة عيب الولاة، وسوء تصرف أولى الأمر»(١).

ومن أهم مميزات المماليك: أنهم كانوا غرباء من بلاد بعيدة جلبوا منها أطفالاً صغار السن ولكونهم غرباء عن أهل البلاد، ولخضوعهم لتربية خاصة أعدتهم إعداداً ثقافياً وعسكرياً، ليكونوا جنوداً وحكاماً وسياسيين، يتولون الوظائف العليا حسب الكفاءة الشخصية فى المجتمع دون اعتبار لنشأتهم الأولى، فقد عاشوا كطائفة منفصلة عمن حولهم، ولم يختلطوا إلا نادراً بالسكان المحليين من مسلمين ونصارى، ولم يتزاوجوا معهم إلا فيما ندر.

كما احتكروا الجندية عليهم، بل بالغوا فى ذلك حتى جعلوها وقفاً على المماليك الصغار الذين يجلبون حديثاً، ولم يسمحوا لأبناء المماليك الكبار من الانخراط فيها، بل قصروهم على الوظائف الإدارية والكتابية. ورغم اختلاف أصول مولدهم وانقسامهم حسب قادتهم وسادتهم إلى أحزاب متطاحنة، فإنهم كانوا يجتمعون ويتماسكون لمواجهة الأخطار المشتركة التى يتعرضون لها من قبل أهل البلاد من مصريين وشاميين أو من المغول أو الصليبيين.

وكانوا يتعلمون القرآن الكريم والفقة الاسلامى وينشأون تنشئة

---

(١) المصدر السابق.

إسلامية وهذا يكسبهم ثقة العامة، فكان بعضهم يتظاهرون بالصلاح والتقوى، ويقدمون على بناء العمائر الدينية من المساجد، بينما يمارس بعضهم فى خلواتهم أشد أنواع الفسق والفجور، ولم يكونوا يتحرجون من الانتساب إلى مشتريهم الأول أو أستاذهم مثل الصالحى، والمعزي، أو يلحقون بأسمائهم ما يدل على أثمانهم التى بيعوا بها مثل الألفى.

وكان المملوك شديد الوفاء لسيده أو أستاذه أو رابطته مع زملائه الذين تربوا لدى سيد واحد، فكانت علاقة المملوك بسيده فى الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية، ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة، وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الحكومة والإدارة والجيش.

والوصف الذى ذكره المقريزى فى شرح تربية المماليك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن أن تخرج عن الصورة التى درج عليها الأيوبيون فى تربية مماليكهم، ما عدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التى أدخلها سلاطين المماليك أنفسهم.

فإذا قدم بالمملوك تاجره، وكما قلنا عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله فى طبقة جنسه، ويسلمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيهها يأتيها كل يوم، ويأخذ فى تعليمها القرآن، واللغة العربية والتعليم بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار.

وكان النخاسون لا يأتون إلا بالمماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئا من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ فى تعليمه فنون الحرب من اطلاق السهام ورمى الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة كل ما يحتاج إليه، وإذا وصل المملوك إلى إتقان رمى الرمح أو رمى النشاب، لا يجسر جندى أن يحدثهم أو يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة، ويتنقل فى

أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده فى رماية النشاب وفنون القتال الأخرى.

وقد كان لهم خدام وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافيا ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبية الذى يعلمه القرآن، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على وأنه اقترف ذنبا، أو أخل برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه.فلذلك كانوا سادة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[1].

وكانت للمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامات ومدارس على غرار منشآت المماليك الأسدية والصلاحية، نذكر منها المدرسة الغزنوية التى بناها حسام الدين قايماز الصالحى النجمى والخانقاه البندقدارية التى بناها الأمير علاء الدين البندقدارى الصالحى النجمى، ومطبخ سكر الأمير فارس الدين أقطاى الصالحى النجمى، وحمام الرومى بجوار حارة برجوان نسبة إلى الأمير سنقر الرومى الصالحى النجمى، الخ[2]. وهذا يدل على أن الدولة الأيوبية استخدمت المماليك الأتراك استخداماً واسعاً.

■ ■ ■

---

(١)، (٢) المصدر السابق.

العلاقة بين المملوك وسيده وعلاقة المماليك فيما بينهم فى الدولة المملوكية

يمر المملوك بمراحل اجتماعية مختلفة مع سيده والذى يطلق عليه فى عرف المماليك أستاذه، وبينه وبين قرنائه من المماليك، فالنخاس (تاجر الرقيق) هو الأستاذ الأول للملوك فهو سيده الذى جلبه وعرضه للبيع فلا يعرف أباً ولا أسرة سوى ذلك التاجر حتى إن المملوك يحمل اسم التاجر الذى يقوم ببيعه ثم يطلق عليه أسماء أخرى ثم كنية ولقباً فإذا اعتلى المملوك مثلا كرسى السلطنة أو الحكم كما حدث مع سيف الدين قطز أو بيبرس وغيرهما من المماليك يضاف إليه لقب السلطان بوصفه من الصفات مثل الملك الناصر وسيف الدولة وسيف الدين.

وأهم شخص فى حياة أى مملوك هو الأستاذ والسيد الذى يستقر عنده ويكون فى خدمته، فيظل وفياً له طول حياته، ويطلق على المملوك اسم مُسْتَخْدَمْ وعلى السيد أو الأستاذ اسم مخدوم.

ويظل المملوك يدين بالولاء لسيده وأستاذه الذى انضم لخدمته ثم أعتقه، وقد ذكر المؤرخون الكثير من المواقف التى مثلت قوة الرابطة بين المماليك والأساتذة وخاصة فى حالة ما إذا تعرض الاستاذ الذى قد يكون السلطان للقتل فينتقم المماليك خاصته له، كما حدث مع مماليك السلطان خليل بن قلاوون من انتقامهم من الأمير بيدرا قاتل السلطان، حيث قاموا بالانتقام منه وقتله عام ٦٩٢هـ، بل إن مقتل السلطان قطز بعدانتصاره فى موقعة عين جالوت على يد بيبرس وبعض المماليك كان انتقاماً لأستاذ بيبرس الأمير أقطاى كما سيأتى ذكر ذلك فى حينه.

ويعتبر التقصير فى الولاء والوفاء للأستاذ عملاً ذميماً، فحينما علم السلطان جقمق بتآمر جماعة من المماليك على اغتيال أستاذهم الأمير تغرى بردى الداوادار الكبير ومحاصرتهم داره سنة ٨٤٦، أرسل جماعة من رؤوس النوب، فقبضوا عليهم وضربوهم ضرباً مبرحاً، ثم أرسلهم إلى الحبس(١).

ومن الروابط المملوكية التى لم تقل عن الأستاذية، رابطة الخجداشية. فالخجداش أو الخشداش معرب باللفظ الفارسى خواجاتاش أى الأخ أو الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق، فكلما كثرت خشداشية أمير من امراء ازدادت مكانته، ففى سنة ٦٥١ هـ صار الأمير أقطاى زعيم المماليك البحرية، وكانوا أقوى الفئات المملوكية وقتذاك، فأضحى لا يقدر أحد من الأمراء أن يفتح كتابا ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمراً إلا بحضوره لكثرة خشداشيته.

فلما قتل أقطاى بتدبير السلطان أيبك ومملوكه قطز سنة ٦٥٨هـ تحرك خشداشيته البحرية.

وترتب على ذلك تحرج مركز السلطان أيبك، فأخذ يعمل على إبعادهم حتى تشردوا فى الشام وآسيا الصغرى، حيث عملوا على خلق المشاكل له وساعدوا على اغتياله(٢).

وحرص السلطان الظاهر بيبرس على استمالة خشداشيته من البحرية بتأمير عدد منهم والتجاوز عن سيئات بعضهم، فعلى الرغم من عصيان الأمير سنجر الحلبي نائب دمشق وإعلانه الاستقلال بالشام، فإن بيبرس أخذ فى إصلاح أمره معه.

وحين اطمأن السلطان الجديد إلى ولاء خشداشيته لأنهم زملاؤه فى الرق والتربية والعتق والخدمة، رفعهم إلى الرتب العالية وعهد إليهم بالوظائف الرئيسية.

---

(١) انظر عقد الجمان ـ للعينى.

(٢) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزى.

اقترنت الخجداشية بالتعصب العنصرى أثناء سلطنة بيبرس الجاشنكير، فصار الأمر والسلطان فى يد البرجية وهم خشداشية بيبرس، وأصبح نواب بلاد الشام منهم(١).

ومن مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم بعضهم لبعض، حرصهم على إنقاذ من يقع منهم فى محنة.

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله خشداشية الأمير حسام الدين لاجين قبلوا الأرض بين يدى السلطان قلاوون وسألوه العفو عنه، بعد أن قبض عليه لتحريضه بعض الأمراء بالخروج على طاعته، فأطلقه السلطان وأعاده الى رتبته(٢). ومن آداب الخشداشية ما يقدمونه من هدايا فى المناسبات الاجتماعية. فحين عقد قلاوون عقده على ابنة أحد أمراء التتار الذين قدموا إلى مصر، أرسل إليه الأمراء والسلطان الظاهر بيبرس الهدايا سنة ٦٦٤هـ ومن بينها أربعة من المماليك السلطانية، فاستعفى من قبول المماليك لأنهم خشداشيته(٣).

وبلغ تكريم بعض الأمراء لخشداشيتهم أن الأمير جمال الدين آقوش السلحدار أوصى سنة ٦٧٨هـ بأن يدفن عند خشداشه ايدكين بن عبدالله الشهابى نائب دمشق وأستاذ السلطان بيبرس(٤).

وإذا توفى أحدهم أثناء القتال استولى خشداشه على ميراثه، كما أخذ الخشداشية إقطاعات من مات منهم فى الوباء الذى حدث بمصر سنة ٨٩٧هـ زمن السلطان قايتباى(٥).

---

(١) انظر المنهل الصافى لابن تغرى بردى.

(٢) انظر النجوم الزاهرة ـ لابن تغرى بردى.

(٣) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ـ مصدر سابق.

(٤) انظر النجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

(٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ مصدر سابق.

وحيث إن الخشداشية من الأخوة والزمالة فهم يتقاسمون أمورهم من الخير والشر، وكذلك كراهيتهم لغيرهم المماليك، فتروى كتب التاريخ أنه حين انكشفت المؤامرة التى دبرها الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة مع خشداشيته لخلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠، أمر الناصر بالقبض على بكتمر وعلى الأمير كراى المنصورى نائب الشام لأنه خشداشه ورفيقه فى التآمر على سلامة السلطان.

وذكر صاحب المنهل ابن تغرى بردى أن شجرة الدر اعتبرت نفسها خشداشاً للصالحية، رغم كونها امرأة، وبمساعدتهم تولت السلطنة، وحاول خشداشيتها من الصالحية بكل قوتهم أن يَحُولوا دون اغتيالها، غير أنهم فشلوا فى ذلك إزاء حرص مماليك السلطان أيبك على الأخذ بثأر أستاذهم الذى دبرت شجرة الدر أمر اغتياله.

أحياناً ينقسم الخشداشية على أنفسهم أثناء قيام سلطان جديد، فينحاز فريق منهم إلى جانب أمير، وينضم فريق إلى جانب أمير آخر منهم، ويترتب على هذا الانقسام نشوب الحروب الداخلية من أجل الوصول إلى الحكم.

وأشهر الفتن التى حدثت بتأثير هذا الانقسام، ما وقع من تنافس بين أيبك وأقطاى، وبين لاجين وكتيغا، وبين برقوق وبركة الجوباتى.

وجرى العرف فى عهد المماليك على تسمية المملوك الكبير منهم باسم أغا، وعلى تسمية الواحد من الصغار باسم أنى، ويصبح أولئك الصغار فى كنف الكبار، فالأغا أشبه بمؤدِب الأنى، يخصه بعطفه ورعايته. وإذا وقع صدام بين المماليك فى الطباق أعان الأغا أنياته.

ومهما بلغ الأنى من الرقى والنفوذ فإنه يظل معترفاً بجميل أغاته حتى لو أصبح أعظم منه وظيفة ورتبة.

وحياة المملوك بعد العتق لها انطباعات السنوات التى قضاها فى الرق

حيث أسهمت هذه السنوات فى تكوين شخصية المملوك وصفاته فى المجتمع المملوكى.

فالعلاقات بين المماليك الذين جمعتهم أواصر الرق والعتق والتربية والخدمة، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير تشبه أحياناً روابط البنوة وأحياناً روابط الأخوة.

فالأستاذ هو الأب، والأغا هو الأخ الكبير، والأنى هو الأخ الصغير ولفظ أخ يرادف لفظ خشداش، ولفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية.كل هذه العوامل جعلت من المماليك على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم وحدةً اجتماعيةً متماسكةً، يؤدى كل فرد منها عمله فى محيطها فى حدود طبقته ودرجته، وسار أبناء الأمراء ولا سيما فى القصر المملوكى الأول على سنة آبائهم.

■ ■ ■

الحالة الاجتماعية والنظامية للماليك فى مصر

لقد حرص سلاطين المماليك منذ قيام دولتهم على أن يعيشوا مع مماليكهم فى القلعة، ولذا اشتملت القلعة على الدور السلطانية ودار العدل وقصور السلطان والبساتين والبيوت السلطانية مثل الحوائج خاناه والشرانجاناه والطبلخاناه، وغيرها فضلاً عن الطباق والاسطبلات. واشتملت القلعة كذلك على الدور لخواص الأمراء بنسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم وطشتخاناتهم وفرشخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وسائر وظائفهم، يضاف إلى ذلك دار الوزارة وبيت العدل ودار النيابة والسجون المختلفة والمساجد والحوانيت والأسواق.

ومن مرافق القلعة الميدان وهو فاصل بين الاسطبلات وسوق الخيل، ويصلى فيه السلطان صلاة العيدين ويلعب فيه بالإكراه مع خواصه، ويمد به أحيانا الأسمطة. وظل أكابر أمراء الألوف وأعيان أمراء الطلبخاناه والعشرات يسكنون القلعة الى آخر أيام الناصر قلاوون[1].

والقلعة فى مصر لم تكن مقراً لكل الأمراء والمماليك، فقد عاش الكثير منهم فى دور خارج القلعة لسبب من الأسباب، فإذا تأمر أحد أولئك المماليك لا يتغير عن داره التى سكنها أثناء جنديته بل قام الكثير من الأمراء فى تجديد هذه البيوت ولا سيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لشغف السلطان بالعمارة؛ فاشتهرت دار الأمير بالسعة وكثرة المبانى لسكن الأمير وحريمه وجواريه وحواصله، فضلاً عن مماليكه، وقد تكون

(١) انظر الخطط للمقريزى ـ مصدر سابق.

اصطبلاته داخلة فى نطاق الدار أو منفصلة عنها. فقد بلغ من سعة اسطبل الأمير بكتمر الساقى زمن الناصر قلاوون انه كان يتسع لستمائة رأس من الخيل يشرف على كل ستة منها سائس، ويكون على باب أمير المائة مقدم ألف ثمانية أحمال طلبخاناه وطبلان ودهل وزمران وأربعة أنقرة. أما أتابك العساكر فله مثله مرتان بباب أمير الطلبخاناه ثلاثة أحمال طلبخاناة ونفيران. وإذا تأمر لأحد الأمراء ولد أو ولدان، يضرب على بابه بقدر عدد من تأمر منهم. وكل أمير من أمراء المئين أو الطلبخاناة سلطان صغير فى غالب الأحوال، فلكل منهم ما للسلطان من بيوت الخدمة كالطشتخاناه، والفراشخاناه والركابخاناه والزردخاناه والمطبخ والطلبخاناه.

وتحوى الطشتخاناه على ما يلبسه الأمير من ثياب خاصة، والسيف والخف، كما يوجد بها المقاعد والمخاد والسجادات التى يستعملها الأمير.

وتشتمل الفراشخاناه على البسط والخيام، وتحوى السلاح خاناه السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد، والقراقلات المصنوعة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر فضلاً عن الأطبار وسائر أنواع السلاح(١).

أما الركابخاناه التابعة للأمير فتشتمل على عدد الخيول من السروج واللجم والكنابيش والعبى الخاصة بالمواكب والأجلال والمخالى،ويضاف إلى ذلك السروج المغشاة بالذهب والفضة والساذجة، والكنابيش المتخذة من الذهب المزركش، والعبى المصنوعة من الحرير والصوف(٢).

وتشتمل الطلبخاناه على الطبول والأبواق وتوابعها من الزمور.

ولكل من الأمراء إسطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال. وله من أجناده استادار ورأس نوبة وداوادار وأمير مجلس وجمدارية وأمير أخور واستادار صحبة ومشرف.

(١)، (٢) انظر صبح الأعشى ـ للقلقشندى.

وتطورت ملابس الأمراء والجند منذ قيام الدولة المملوكية شأنها فى ذلك شأن سائر ما أصاب النظم المملوكية من التطور. إذ ظل السلطان المملوكى والأمراء والجند يلبسونه كلوتة صفراء ذات كلاليب بغير عمامة من فوقها، وجعلوا شعورهم المضفورة تنتهى إلى كيس مصنوع من الحرير، وشدوا أوساطهم بأحزمة من قطن بعلبكى مصبوغ، وارتدوا أقبية بيضاء أو مشجرة باللونين الأحمر والأزرق ضيقة الأكمام، وجعلوا فوق القباء كمرين بحلق وابزيم وصوالق كبيرة، يستخدمها الفارس فى حفظ مؤنته وأدواته، واتخذوا خفافهم من جلد بلغارى أسود، وجعلوا من فوق الخف سقماناً وهو خف آخر(١).

ثم عدل السلطان قلاوون هذا الزى، فأبطل لبس الأقبية ذات الأكمام الضيقة، وأمر بلبس الشاشات، وزادت الملابس حسناً وجمالاً زمن السلطان خليل والسلطان ناصر، فاتخذ الجند الكلوتة الحمراء الصغيرة اللطيفة، واستجد الناصر العمائم الناصرية الصغيرة مع قص الشعر(٢).

وامتاز الأمراء عن الجند منذ عصر السلطان خليل بركوبهم فى المواكب بالكلوتات والطرزات والكنابيش المزركش والأقبية الأطلس، واتخاذ الملبوس الأبيض الرفيع والسروج المرصعة.

واستقر زى الأجناد والأمراء منذ ذلك الحين، فصاروا يلبسون الأقبية التترية، ومن فوقها التكلاوات، وفوق ذلك يرتدون القباء الإسلامى، ويشدون السيف من جهة اليسار ويجعلون الصوالق والكزلك من جهة اليمين.

واختلفت ملابس الأمراء والجند زمن الصيف عن ملابسهم زمن الشتاء، ففي زمن الصيف يغلب على جميع قماشهم اللون الأبيض، وتكون مناطقهم وهى الحياصات من الفضة المطلية بالذهب، ولا ترصع بالجواهر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الخطط للمقريزى ـ مصدر سابق.

إلا فى خُلع السلطان لأكابر الأمراء، وفى الشتاء تكون الفوقانيات من الصوف والحرير وغالب لبس المماليك فى أرجلهم الخفاف البيضاء صيفا، والصفراء شتاء(١).

ويركب السلطان والأمراء والجند الخيل المزينة بالقماش النفيس والقوالب المحلاة بالفضة، ولا يركب البغال إلا الغلمان.

وامتازت خيول السلطان وأعيان الأمراء بالغاشية الذهبية، والكنابيش واللجم الفضية، وتسبل عليها العبى الملونة من الصوف أو الحرير. ويجعل السلطان أو الأمير الدبوس فى حلقة متصلة بالسرج تحت ركبته اليمنى.

هكذا كانت الزينة والأبهة فى لباس المماليك الذى يغطى على الرق الذى أفرز هذه الطائفة ورفعها من العبودية إلى السلطنة والحكم.

وكان لكل طائفة من المماليك وحاشية السلطان علامات ونقوش تعرف بها توجد على العصائب والتروس ولهم أعلام يشتهرون بها، حتى إنه كان لكل أمير فى مجلسه مسند خلف ظهره من الجوخ الأحمر الملون ويسمى «بشتميخ» وكذلك لكل أمير شارة تعرف «بالرنك» تدل على وظيفة الأمير.

وقد ذكر العينى فى كتابه (عقد الجمان) أن لكل من حاشية السلطان خوارزمشاه علامات سوداء تعرف بها، وعلامة التشتدارية الطشت والأبريق وعلامة الحمدارية البقجة وعلامة الأمير خورية البغل، وعلامة البهلوانية الدبوس، وعلامة الجاندارية الحربة وعلامة الجاويشية قبة من الذهب تشد بخيط إلى قلانسهم يعرفون بها من بعيد، وفى هذا دليل على انتقال هذه الرموز والشارات إلى الدولة المملوكية عن طريق الخوارزمية الذين أكثر الصالح أيوب منهم فى جيشه وربما أخذ الخوارزمية ذلك عن بعض جيرانهم من الفرس.

---

(١) انظر صبح الأعشى ـ مصدر سابق.

ومعظم المماليك لم يتخذوا من الشارات إلا ما يدل على وظائفهم فى البيوت السلطانية أو صفوف الجيش بخلاف الدول والممالك الأخرى.

والمملوك الذى يتوفى دون أن يترك وريثاً شرعيّاً له يرثه أستاذه أو ذرية أستاذه أو بيت المال للدولة.

واختلف الأمراء فى الإنفاق على مماليكهم بحسب مواردهم الإقطاعية ومكانة الأمير ورتبته وما اشتهر به الأمير من صفات البذخ أو التقتير، فقد اشتهر بيبرس الصالحى بكثرة الصدقات، وجرى على أن يطلق لمماليكه رواتب وفيرة، وتراوحت فى اليوم الواحد بين سبعين رطلا من اللحم وما يحتاج إليه من التوابل، فضلا عن سبعين عليقة، وبين خمسة أرطال وخمس علائق، حتى أنه كان يصرف على مماليكه كل يوم ثلاثة آلاف رطل لحم وثلاثة آلاف عليقة للدواب(١).

وهناك طائفة من الأمراء المماليك من اتبع فى معاملة مماليكهم سبيل الاقتصاد والتقتير مثل الأمير سودون الأعرج أحد أمراء الطبلخانات زمن السلطان برسباى الذى ظل يقيم بالطبقة لا ينزل منها، ولا يركب فرساً(٢).

أما فيما يعرف بالخدمة السلطانية للماليك وهى خدمة يقوم بها المماليك بوصفهم جنوداً فى جيش السلطان المملوكى فكان المماليك يقومون بها بالتزام تام، فإذا دخلوا إلى الخدمة السلطانية بالإيوان أو القصر، وقف كل امير فى مكانه المعين له، ولا يقدر أحد منهم أن يتحدث مع رفيقه فى الخدمة ولو همساً ولا يلتفت نحوه.

أما أوقات الخدمة السلطانية فتختلف باختلاف الهيئات التى يجلس معها السلطان. فإذا جلس للنظر فى المظالم بدار العدل بالقلعة وهو صباح الاثنين من كل أسبوع فى جميع الشهور ماعدا شهر رمضان، اتخذ مكانه على كرسى موضوع تحت سرير الملك، وجلس عن يمينه قضاة القضاة

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ـ ابن تغرى بردى. (٢) الضوء اللامع للسخاوى.

ووكيل بيت المال والمحتسب، وجلس عن يساره كاتب السر، ويكمل الحلقة أمامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين، ويقف من وراء السلطان مماليك صغار من السلحدارية والجمدارية والخاصكية، وجلس على مسافة خمس عشرة ذراعا من يمينه ويساره، ذوو السن من أكابر أمراء المئين وهم أمراء المشورة، ويليهم وقوفا أكابر الأمراء وأرباب الوظائف.

وخلف أمراء المشورة يقف سائر الأمراء ويليهم الحجاب والداوادارية.

وفى بقية أيام الأسبوع فيما عدا الاثنين والخميس يخرج السلطان عادة من قصوره الجوانية إلى قصره الكبير المشرف على اسطبلاته، فيجلس على تخت الملك، ويقف الأمراء حوله، ولا يشترك من أمراء المشورة فى هذا المجلس إلا من دعت الحاجة إلى حضوره.

ويشترك الأمراء خاصتهم وعامتهم فى صلاة الجمعة والعيدين مع السلطان، فيؤدى صلاة الجمعة بالجامع المجاور للقصر، وصلاة العيدين بالميدان الملاصق للاسطبل السلطانى[1].

وينعم السلطان على الأمراء بالخلع فى مناسبات معينة، فإذا ولى أميراً أو صاحب منصب وظيفة، فإنه يلبس تشريفاً يناسب ولايته بحسب ما تقتضيه الرتبة.

وفى عيد الفطر يخلع السلطان على جميع أرباب الوظائف من الأمراء وأرباب الأقلام كالأستادار والداوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش كل منهم بما يناسبه.

وجرت عادة السلطان أن ينعم على الأمراء بالخيول مرتين فى كل سنة، فينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وفى المرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان.

---

(١) انظر الخطط للمقريزى ـ وصبح الأعشى للقلقشندى.

وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية، كل على قدر مكانته. الأمراء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة بحيث يصل بعضهم إلى مائة فرس فى كل سنة، وفى أوقات أخرى يفرق السلطان الخيل على مماليكه، وربما أنعم بها على بعض ذوى السن من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد.

ولم تقتصر إنعامات السلطان على الخيول، بل تعدتها إلى الحوائص والملابس والكساوَى. وإذا خرج السلطان مع الأمراء للصيد، أمر بأن تصرف لهم المأكولات والمشروبات والعلوفات لخيولهم.

وعرف السلاطين الأوائل حسن معاملة مماليكهم حتى إنهم كانوا يشركونهم فى إدارة شؤون البلاد، واتخذوا من الوسائل ما يكفل لهم ولاءهم وإخلاصهم، ومن هذه الوسائل التلطف فى معاملتهم، فلم يسئ الصالح أيوب إلى أحد من مماليكه الذين أنشأهم، ولم يقع فى حال غضبه كلمة قبيحة قط وترتب على ذلك اشتداد ولائهم له وهذا بخلاف ابنه "توران شاه" لم ينجح فى اكتساب ثقة المماليك. حيث إنهم حلفوا له بعد إذاعة خبر وفاة الصالح أيوب وبعثوا برئيسهم أقطاى إحضاره من حصن كيفا، ثم قاتلوا معه الصليبيين فى فارسكور سنة ٦٤٨. ولم يكد يحرز توران شاه هذا النصر على الصليبيين حتى أعرض عن مماليك أبيه، وأخذ يسميهم بأسمائهم من باب الاستخفاف، وخص جماعته الذين قدموا معه وولاهم الوظائف السلطانية، وأساء الظن بالمماليك البحرية وتوعدهم فأجمعوا على قتله فقتلوه كما سيأتى ذكره إن شاء الله[١].

ومن مظاهر تقدير السلطان للأمراء، مراعاة مكانتهم أثناء الخدمة والمواكب.

وجرت العادة منذ قيام الدولة المملوكية على تسمية قديم الهجرة من الأمراء باسم الأمير الكبير، ويجوز أن يكون منهم جماعة فى عصر واحد،

---

(١) انظر السلوك ـ للمقريزى.

فيجلسهم السلطان فى رأس الميمنة بصرف النظر عن وظائفهم.

واهتم السلاطين بترتيب الأمراء حسب أقدميتهم فى الإمرة عند الدخول إلى حضرتهم، فيستقبلهم السلطان واقفاً[1].

■ ■ ■

(١) انظر النجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

2

قطز ودولة المماليك الأولى

«المماليك البحرية»:

- أصول سيف الدين قطز ونشأته.
- بداية دولة المماليك ونهايتها.
- نهاية المماليك بمذبحة القلعة فى عهد محمد على باشا.

أصول قطز ونشأته

قطز كأى مملوك تم شراؤه مثل باقية المماليك الأرقاء القادمين من بلاد ما وراء النهر من بلاد المغول والترك، فالترك من قبائل المغول التى سكنت شرق آسيا ومنهم التتار والمغول الذين خرج منهم جنكيز خان وهولاكو(١).

وقد سجل المؤرخون وكُتَّاب السير قصة قطز بوصفه أحد أمراء الدولة الخوارزمية الإسلامية التى كانت مجاورة لإمبراطورية المغول التى أسسها خان المغول «جنكيز خان»، وقد دخل ملك الدولة الخوارزمية علاء الدين محمد خوارزم شاه فى صراع وحروب مع جنكيز خان أدت إلى تحطم الإمبراطورية الخوارزمية وهلاك علاء الدين محمد خوارزم شاه ثم ابنه السلطان جلال الدين.

الخوارزميون أو الخوارزمشاهات، أو شاهات خوارزم (بالفارسية: خوارزمشاهيان)، هى سلالة تركية سنية حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسط وغرب إيران بين سنوات (١٠٧٧ ـ ١٢٢٠). كانوا أتباعاً إقطاعيين للسلاجقة ثم استقلوا، وأصبحوا حكاماً مستقلين فى القرن الحادى عشر الميلادى.

ومؤسس السلالة أنوشطغين (١٠٧٧ ـ ١٠٩٧) من مماليك السلاطين الغزنويين، علا شأنه أثناء خدمته مع السلاجقة، ثم عينه هؤلاء والياً على خوارزم، فى عهد قطب الدين محمد (١٠٩٧ ـ ١١٢٨) ثم علاء الدين أتسز (١١٢٨ ـ ١١٥٦) تمتعت الدولة باستقلالية كبيرة.

بدأ الخوارزميون بالتوسع فى خراسان، ثم دخلوا فى صراع منذ عام ١١٥٧ مع السلاجقة وضم آل أرسلان (١١٥٦ ـ ١١٧٢) إليه كل المناطق

---

(١) اقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء» ففيه المزيد عن يأجوج ومأجوج أصل قبائل التتار المغول منذ بداياتهم حتى نهايتهم آخر الزمان، الناشر دار الكتاب العربى.

الشرقية من دولة السلاجقة واستطاع علاء الدين تكش (١١٧٢ ـ ١٢٠٠) أن يخلف السلاجقة فى بلاد فارس عند استيلائه على خراسان عام ١١٨٧، ثم توسعه حتى إقليم الرى عام ١١٩٢ وأصبح بعدها حامى الخلافة العباسية الجديد.

بلغت الدولة أقصى اتساعها اثناء عهد علاء الدين محمد الخوارزمى (١٢٠٠ ـ ١٢٢٠) حيث ضم منذ ١٢٠٦ إلى مملكته أراضى دولة الغوريين فى أفغانستان. توسع فى بلاد ما وراء النهر حتى بلغ أطراف منغوليا فى الشرق. وقضى على دولة القراخانات فى سمرقند عام ١٢١٢م. قام بتحدى جنكيز خان زعيم القبائل المنغولية، حيث إن جنكيز خان أرسل له رسالة وهدايا ولكن علاء الدين محمد لم يعجبه مضمون الرسالة التى كانت مقدمتها (ولدنا المحبب إلى نفوسنا)، وشاء الله أن يقتل الرسل فى طريق عودتهم، فعد جنكيز خان ذلك إعلاناً للحرب فقرر غزو بلاد خوارزم وعندها لم تصمد جيوش علاء الدين محمد وتلقى الخوارزميون هزيمة قاسية أمام المغول ففر السلطان الخوارزمى فى (١٣ شوال٦١٧هـ = ١٧ ديسمبر ١٢٢٠م) لجزيرة نائية فى بحر قزوين حيث مات وحيدا وترك لابنه جلال الدين منكبرتى(١٢٢٠ ـ ١٢٣١) مهمة قتال المغول، وبالفعل استمر فى قتالهم حتى انهزم وسقطت بلاد خوارزم ولجأ إلى الهند وظل يقاتل المغول حتى انهزم وفر إلى بلاد الأكراد، حيث قتل هناك على يد أحد الأكراد(١).

فقد كان المغول يتعقبون جلال الدين؛ لكونه أقدر الخوارزميين على جمع الناس ضدهم، وأكثرهم جرأة على الحرب والقتال، حتى إذا بدأت طلائع الجيش المغولى تزحف نحو غزنة للاستيلاء عليها والقضاء على السلطان الجديد قبل أن تشتد شوكته، فاجأها جلال الدين بهجوم خاطف فى ربيع الأول (٦١٨هـ = ١٢٢١م) لم تصمد له ولحقتها هزيمة كبيرة قُتل

(١) اقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج» وكتابنا «جنكيز خان قاهر المغول»، الناشر دار الكتاب العربى.

فيها ألف رجل منهم؛ فكان لذلك أثر عظيم فى نفسه استرد به ثقته وثبّت قدمه، فلما التقى بقوات المغول الرئيسية التى أعقبت طلائعها صمد لها فى القتال وألحق بها هزيمة مدوية وولى فرسانها الأدبار، وجنود السلطان يتعقبونهم بالقتل والأسر.

وما كادت أنباء هذا النصر تصل إلى بعض المدن التى فى أيدى المغول حتى عمها الفرح والبشر، وظنت أن ساعة الخلاص قد اقتربت فثارت فى وجه المغول، وكانت «هراة» واحدة من تلك المدن، غير أن فرحها تحول إلى مأساة محزنة، إذ قدم إليها جنكيزخان واستعاد سيطرته عليها وقتل أهلها وبدلا من أن يزيد النصر الذى حققه المسلمون وحدة إلى وحدتهم ويوثق عراهم أمام الخطر الذى لا يزال محدقاً بهم، تنازعوا فيما بينهم على الغنائم التى حصلوا عليها.

وعجز السلطان عن تدارك الانقسام الذى حدث، وترتب على ذلك أن انسحب أحد القادة بقسم كبير من الجيش الخوارزمى دون تقدير المسؤولية، وغادر غزنة دون أن يستجيب لتوسلات السلطان جلال الدين الذى ووجد نفسه فى قوات لا تقدر على مقاومة إعصار المغول؛ فانسحب بها إلى سهل يقع غربى نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيزخان إلى إقليم غزنة للانتقام من جلال الدين منكبرتى والثأر لهزيمة جيشه على يديه.

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده إلى الهند لعله يجد فيها مأمنه، ولكن بحّارة السفن لاذوا بالفرار حين علموا بقدوم جنكيزخان تاركين السلطان وجنوده على الشاطئ، فاضطروا إلى خوض معركة لم يستعدوا لها، ودارت معركة غير متكافئة ثبت فيها جلال الدين لهجوم المغول وحمل بنفسه حملة صادقة على قلب الجيش المغولى كادت تزلزله، ولكن ميسرة جيش جلال الدين لم تتحمل ضربات المغول فانكشفت

وتبــددت، ووقف السلطان على رأس ٧٠٠ من رجــاله يقــاتلون فى بســالة وثبات جحافل المغول، ولكن دون جدوى، واضطر أن يولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه فى النهر وتبعه من بقى من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخــرى، ووقع فى الأســر ابن للسلطان وكــان طفــلاً فى الثــامنة، ولكن جنكيزخان لم يرحم طفولته فقتله بيده.

ولما عبـر السلطان إلى الجهـة الأخرى رأى والدته وأم ولده وحـريمـه يصحن بأعلى صوتهن: «بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسـر»، فـأمر بهن فـأغـرقن وهمّ كـثـيـر من المغـول بعـبـور النهـر واللحـاق بجـلال الدين، لكن جنكيزخان منعهم واكتفى بهذا النصر الذى أعاد للمغول هيبتهم، وحقق لهم الاستيلاء على غزنة التى كانت خالية من الجند.

ولجـأ إلى جبـال كـردسـتـان بعد أن يئس المغول من تتبـعـه للقضـاء عليـه، وظل هناك هـائمـاً على وجـهـه حـتى عـثـر عليه رجل كـردى وأخـبـره أنه هـو السلطان جـلال الدين، فـأخـذه الكردى إلى منزلـه، وخـرج ليـدبر له بعض خـيوله ليـسـتـعين بها السلطان فى رجوعـه إلى بلاده، وبينمـا كـان الكردى غـائبـاً عن منزله أتـى كـردى آخـر لزيارته فلمـا دخل المنزل رأى السلطان فعرفه، وكان قد قتل أخاً له فى إحدى غزواته، فضربه بحـربته التى كانت فى يده فنشبـت بين أضلعه وسـقط السلطـان قتيلاً، وذلك فى (١٥شوال ٦٢٨هـ = ٩ أكتوبر ١٢٣١م).

وبمقـتله سـقطت الدولة الخـوارزمـيـة أمام المغـول الذيـن سيطـروا على أراضيها، وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة للغزو المغولى قادها هولاكو حفيد جنكيزخان، فقضى على الخلافة العباسية فى بغداد وسـقطت فى يده مدن الشام كحلب ودمشق.

وكان الأمير ممدود الخوارزمى ابن عم السلطان جـلال الدين وزوج أخته قد شـارك السلطان جلال الدين قتاله للمغول حتـى نال الشـهـادة وقـتل فى

بداية تلك الحروب، وكان الأمير ممدود قد ترك ابنه الصغير محمود الذى رباه خاله السلطان جلال الدين، وقد ذكر أكثر من مؤرخ وكاتب للسيرة قصة هذا الأمير محمود بن ممدود الذى عرف فيما بعد بالمملوك قطز.

وتروى كتب السيرة والتاريخ وخاصة الأديب باكثير فى روايته «وا إسلاماه» مواقف للأمير ممدود مع السلطان جلال الدين فقد قال عنه:
ـ «مات الأمير ممدود شهيداً فى سبيل الله، ولم يتجاوز الثلاثين من عمره، تاركاً وراءه زوجته البارة، وصبّياً فى المهد لم يدُر عليه الحول، ولم يتمتع برؤيته إلا أياماً قلائل، إذ شغله عنه خروجه مع جلال الدين لجهاد التتار. ولم يكن له ـ وهو يودع هذه الحياة ونعيمها ـ من عزاء إلا رجاؤه فيما أعد الله للشهداء المجاهدين فى سبيله من النعيم المقيم والرضوان الأكبر».

ومما جاء فى الرواية عن سبب غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية ما قاله السلطان (جلال الدين) للأمير ممدود:

ـ غفر الله لأبى وسامحه لو لم يتعرض لقبائل التتار المتوحشة لبقيت تائهة فى جبال الصين وقفارها ولظل بيننا وبينهم سد منيع.

ويقول باكثير فى روايته على لسان الأمير ممدود للسلطان جلال الدين: «سيكون لك من معونة الله وتوفيقه إذا أخلصت الجهاد فى سبيله، ما يشرح لك صدرك ويضع عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ويرفع لك بهزيمة التتار بين الناس ذكرك».

وقال الأمير ممدود للسلطان جلال الدين يشجعه على الجهاد: إنك ابن خوارزم شاه ووارث ملكه وخليفته على بلاده، وما يكون لك أن تيأس من هزيمة عدوه، وطرده من بلاد رعاياه... لقد كانت الحرب بين أبيك وبين هؤلاء سجالاً، فتارة يهزمهم، وتارة يهزمونه حتى نفذ فيه القضاء لأمر طواه الله فى علمه.

وحين غضب السلطان جلال الدين من عدم نصرة حكام الدول الإسلامية له وخاصة ملوك المسلمين فى (مصر وبغداد والشام) واتهمهم بالتقصير وعدم الإسـراع إلى نجـدة والده، وهدد بالانتـقـام منهم، رد عليـه الأمـيـر (ممدود) بالتماس العذر لهم بأنهم كانوا مشغولين برد غارات الصليبيين الذين لا يقلون خطراً عن التتار، بل يزيدون بتعصبهم الدينى الذميم.

ومع ذلك يقـرر (جـلال الدين) أنه سـيـقـتـصـر على تحصـين بلاده ضد التتـار، حتى يضطرهـم إلى تركها، والتوجه إلى الغـرب حيث ملوك المسلمين المتـقـاعـدين، ولكن الأمـيـر (ممدود) لا يـوافـقـه على هـذا الرأى قـائـلا:لن تستطيع حـمـاية بلادك إذا غـزاك التتـار فى عقـرها، وهـم لن يتوجـهوا إلى الغـرب قـبـل أن يفـرغـوا من الشـرق، ويقـضـوا على ممالك خـوارزم كلهـا.. واتفـقـا فى النهـاية على الاسـتـعـداد للحـرب، والبـدء بمهـاجـمـة التـتـار فى ديارهم، قبل أن يصلوا إلى البلاد.

وعقَّب باكثير على قول المنجم للسلطان جلال الدين أنه سيولد فى أهل بيتـه «غـلام يكون ملكاً عظيـمـاً على بلاد عظيـمـة، ويهـزم التـتـار هـزيمـة ساحقـة»، من خلال وجهة نظر الأمير ممدود ابن عم السلطان بقوله: هكذا يرى ممدود فى هـذا المنجم، وغـيـره من المنجـمـين والضـاربين بالـرمل والقارئين فى الكف، أنهم ليسوا إلا دجالين يدعون معرفة الغيب بما أوتوا من براعة وفطنة فى تبين أحوال من يستفتيهم، وتقصى أسراره ودخائله. وعلى قدر هذه الفطنة والبراعة، يوفقون إلى إصابة الحقيقة فى تنبوءاتهم وتخرصاتهم . وكذلك على لسان الشيخ عز الدين بن عبد السلام مخاطباً قطز: إنهـا تخـرصـات تخطئ وتصـيب، وقـد نهى الشـرع عن التنـجـيم لأنه تَسَوُّرٌ على الغـيب، ولا يعلم الغـيب إلا الله وقـد اسـتـفـاد «باكـثـيـر» من هذه النبـوءة، فى تشـويق القـارئ لمتابعـة أحـداث الرواية، ولكنه اسـتـبـدل بهـا رؤيا قطز للنبى ﷺ وتبشيره له بأنه سيملك مصر، وسيهزم التتار.

وهكذا حوَّل باكثير ـ ببراعة ـ تحقق نبوءة المنجم إلى تصديق لرؤيا النبى ﷺ كما تبدو ثقافته الفقهية فى قوله عن قطز وجلنار حين ذكر أن سيدهما غانم المقدسى قد أوصى بإعتاقهما عند وفاته، وعلق على ذلك بقوله:

ـ كما دبّر لهما مولاهما الفقيد «و(التدبير) فى الفقه هو أن يوصى السيد بأن يعتق العبد عند وفاة السيد»(١).

وممن ذكر قصة أصل السلطان قطز ونسبه للخوارزميين أصحاب الدولة الخوارزمية ما جاء فى كتاب (كنز الدرر وجامع الغرر) للدوادارى رحمه الله (الجزء الرابع)، فى حوادث سنة ٦٥٧هـ وفى ذكر شأن بدوّ أمر الملك المظفر قطز فيقول المصنف رحمه الله: ـ

قال العدل أمين الدين محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن عبد العزيز ابن أبى الفوارس الجزرى: حكى لى والدى عن بدوّ شأن الملك المظفر قطز رحمه الله قال: ـ

لما كان فى رقّ ابن العديم. أو قال ابن الزعيم بدمشق بالقصاعين، والصحيح أنه ابن الزعيم، اتفق أن أستاذه غضب عليه يوما لشىء جرى منه، فلطمه على وجهه، ولعن والديه وأباه وجده..!! ثم أنه (قطز) جلس يبكى وينتحب، وزاد فى بكائه عن حد القياس، وحضر الطعام، فامتنع عن الأكل، وظلّ يومه يبكى، قال: ثم إن أستاذه ركب إلى وظيفته، وكان(قطز) عنده عزيزاً بخلاف غيره من مماليكه فأوصى عليه الحاج علىّ الفرّاش؛ وكان الحاج علىّ كبيراً فى بيت ابن الزعيم، فقال: «يا حاج استوصِ بهذا المملوك، ولاطفه، وخذ بخاطره، وأطعمه واسقيه».

قال الحاج علىّ: ـ فأتيته وهو يبكى بعد ركوب أستاذه، فقلت له: «ما هذا البكاء العظيم، من لطشة تعمل هذه العمايل؟ فلو وقع فيك جرح سيف أو نشاب كيف كنت تصنع»؟

(١) رواية (وا إسلاماه) على باكثير.

فقال (قطز): «والله، ياحاج، والله، ما كان بكاى وغيظى من لطشة!! فإن السيوف والله ما تعمل فىّ وإنما غيظى على لعنته لوالدىَّ وأبى وجدى، وهم والله أخير من أبيه وجدوده».

فقلت له: ومن هو أبوك أنت، ومن جدك، وأنت مملوك تركى، كافر ابن كافر.

فقال:" لا تقل هكذا يا حاج، والله، ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ابن مسلم إلى عشرة جدود!! أنا «محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه السلجوكىّ، ولابد ما أملك مصر وأكسر التتار».

قال الحاج علىّ: فضحكت من قوله وطايبته، وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار، ودخل (قطز) دمشق وطلبنى، فأحضرنى وأعطانى خمس مائة دينار، ورتب لى راتبا جيدا، رحمه الله).

لقد ولد قطز أو الأمير محمود بن ممدود الخوارزمى فى أسرة ملكية بمملكة خوارزم شاه بفارس، ولد للأمير ممدود ابن عم وزوج أخت السلطان جلال الدين الخوارزمى، ونشأ نشأة الأمراء وتدرب على فنون القتال على يد خاله السلطان نظراً لاستشهاد أبيه وهو لا يزال رضيعاً فى المهد فى حروب المسلمين الأولى ضد التتار، وكان اسمه وقتها محمود، ودارت عجلة الزمان على مملكة جلال الدين فقضى التتار عليه لامتناع ملوك المسلمين عن نصرته على التتار، وأُسِرَ الأمير محمود وبيع عبدا فى السوق وسمى بقطز. وبيع لثرى من أثرياء الشام فرباه الشيخ الثرى كابن له لما توسم فيه من حسن الخصال وكمال الخلق ليعوضه بذلك عن ابنه العاق، فتعلم اللغة العربية وأصولها وحفظ القرآن ودرس الحديث وشب قطز ولم يحس بأنه قد فقد حريته بل عوضه حنان الشيخ وزوجته عما لاقاه من ألم لفقد أهله على يد التتار.

وبعد موت الشيخ تعمد ابن الشيخ العاق على أذية قطز غيرة وحقداً

عليه ولكن جعل الله له مخرجاً من ذلك فبيع قطز لثرى آخر من أثرياء دمشق وكان هذا الثرى مفتاح قطز للحياة السياسية والجهاد ضد الصليبيين هذا الثرى هو ابن الزعيم والذى كان أكبر معاونى الشيخ المجاهد العز بن عبد السلام، فتربى قطز تربية جديدة على يد كل من سيده الجديد وشيخه العظيم، وجاءت حروب الصليبيين على الشام ومن ضمنها دمشق فباع ملك دمشق وقتها الصالح إسماعيل دينه وأهله واشترى ود الصليبيين، ونهض أهل مصر وملكهم الصالح نجم الدين أيوب للدفاع عن المسلمين فاشترك قطز من ضمن المدافعين من أهل دمشق مع الجيش المصرى وكان له دور كبير فى انتصار المسلمين على الصالح إسماعيل وأعوانه من الصليبيين.

ثم طلب قطز من سيده أن يبيعه للسلطان الصالح نجم الدين أيوب ليندرج فى سلك مماليكه وبالفعل وافق سيده الذى طالما فضَّل مصلحة المسلمين على مصالحه، فباعه وكان يتوسم فيه أنه ذات يوم سيحيى الله على يديه أمة الإسلام وعزها.

وبعد أن بيع قطز إلى الملك الصالح عهد به إلى الأمير المملوكى عز الدين أيبك ولنباهته وذكائه وشجاعته وقوته صار المملوك المفضل لدى الأمير ليرقى بعد ذلك لكى يكون نائب الأمير ونائب السلطنة بعد أن يتولى الأمير عز الدين أيبك الحكم فى مصر وليخلفه من بعده على عرش مصر.

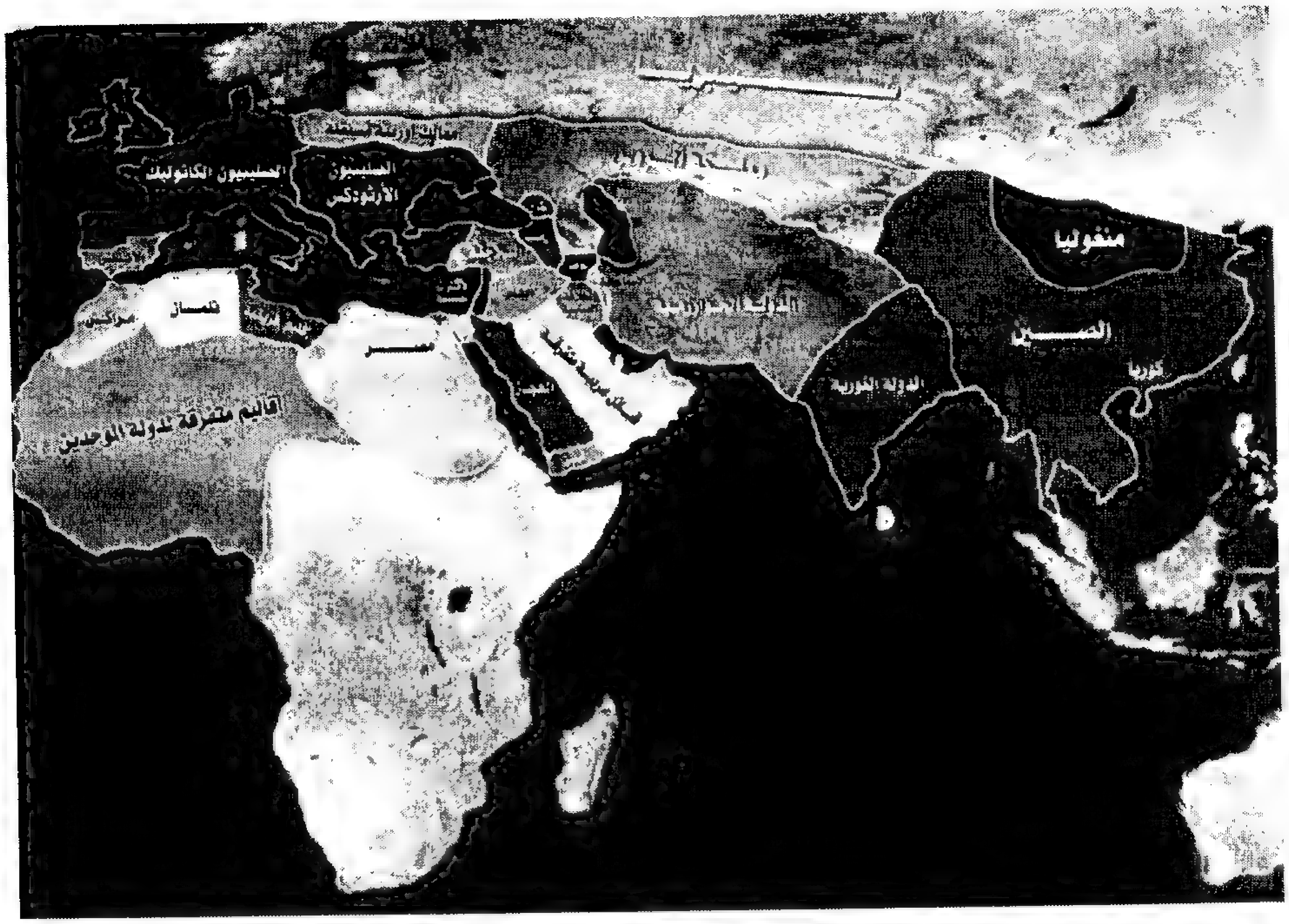
وتربى قطز مثل باقى المماليك حيث يتم إلحاقهم بمدرسة المماليك ويتم تعليمهم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم حفظ القرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامى، ثم فنون الحرب والقتال من الرمى بالسهام والقتال بالسيف وركوب الخيل ووضع الخطط الحربية والتصرف فى أمور الدولة. وقد ساعدت التربية الإسلامية والقتالية لقطز فى سن الطفولة والشباب فى قصر خاله السلطان جلال الدين، حيث تولى رعايته بعد وفاة أبيه فى

تفوق قطز على أقرانه من المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح.

فقد نشأ قطز على كراهية المغول أعداء الأمة الإسلامية وشاهد القتال والمعارك التى قادها خاله وأبوه فى بلاد الخوارزميين، فكان ذلك حافزاً على تصديه لهم حين هاجموا الديار المصرية كما سيأتى ذكر ذلك.

وقيل إن من أطلق على محمود بن ممدود اسم قطز هم التتار الذين باعوه رقيقاً وعبداً بعد خطفه لما وجدوه منه من شراسة، والاسم معناه الكلب الشرس، وأطلق عليه اسم سيف الدين حين اعتلى كرسى العرش بمصر ثم المظفر حين نصره الله على التتار فى عين جالوت فأصبح السلطان المظفر سيف الدين قطز.

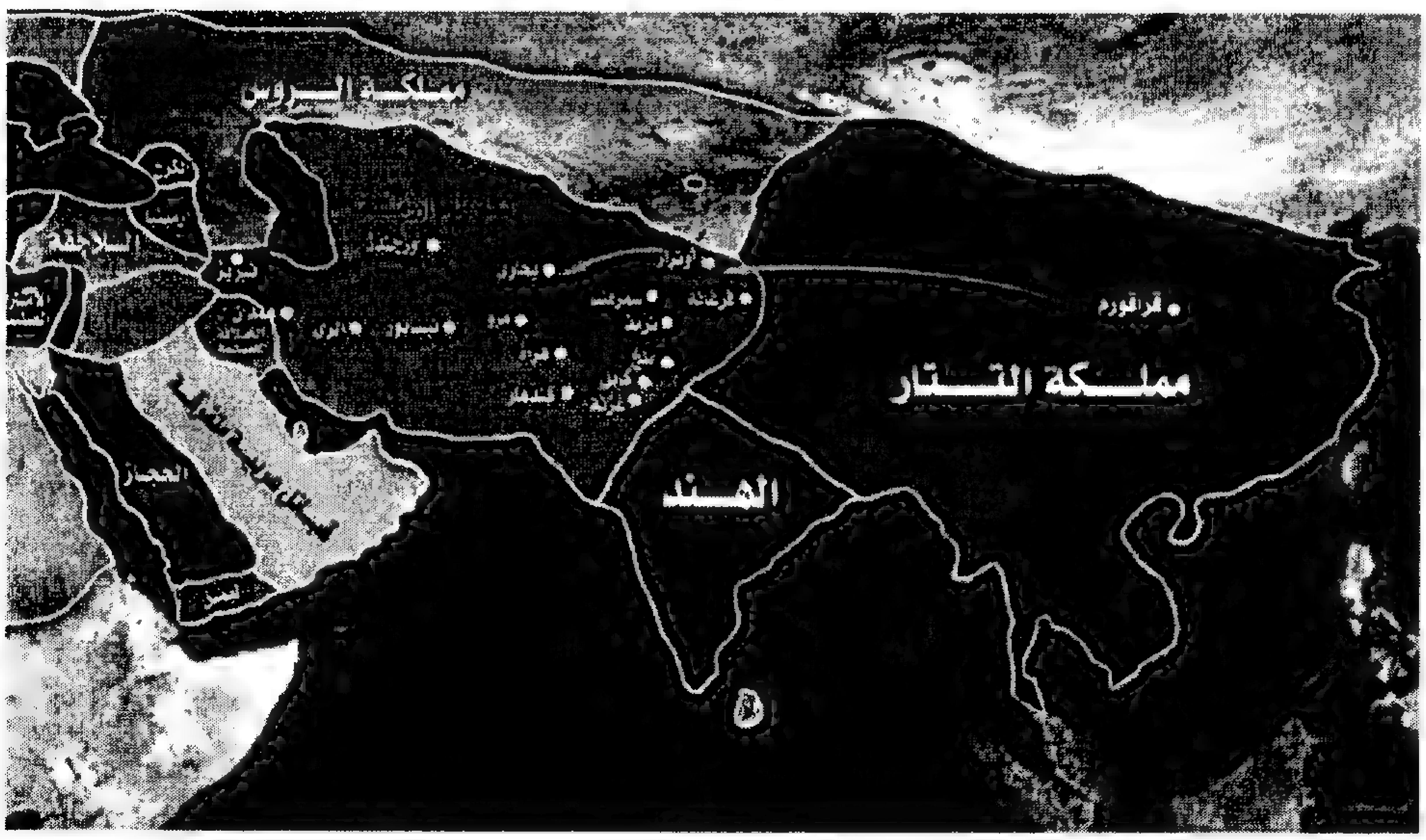
■ ■ ■



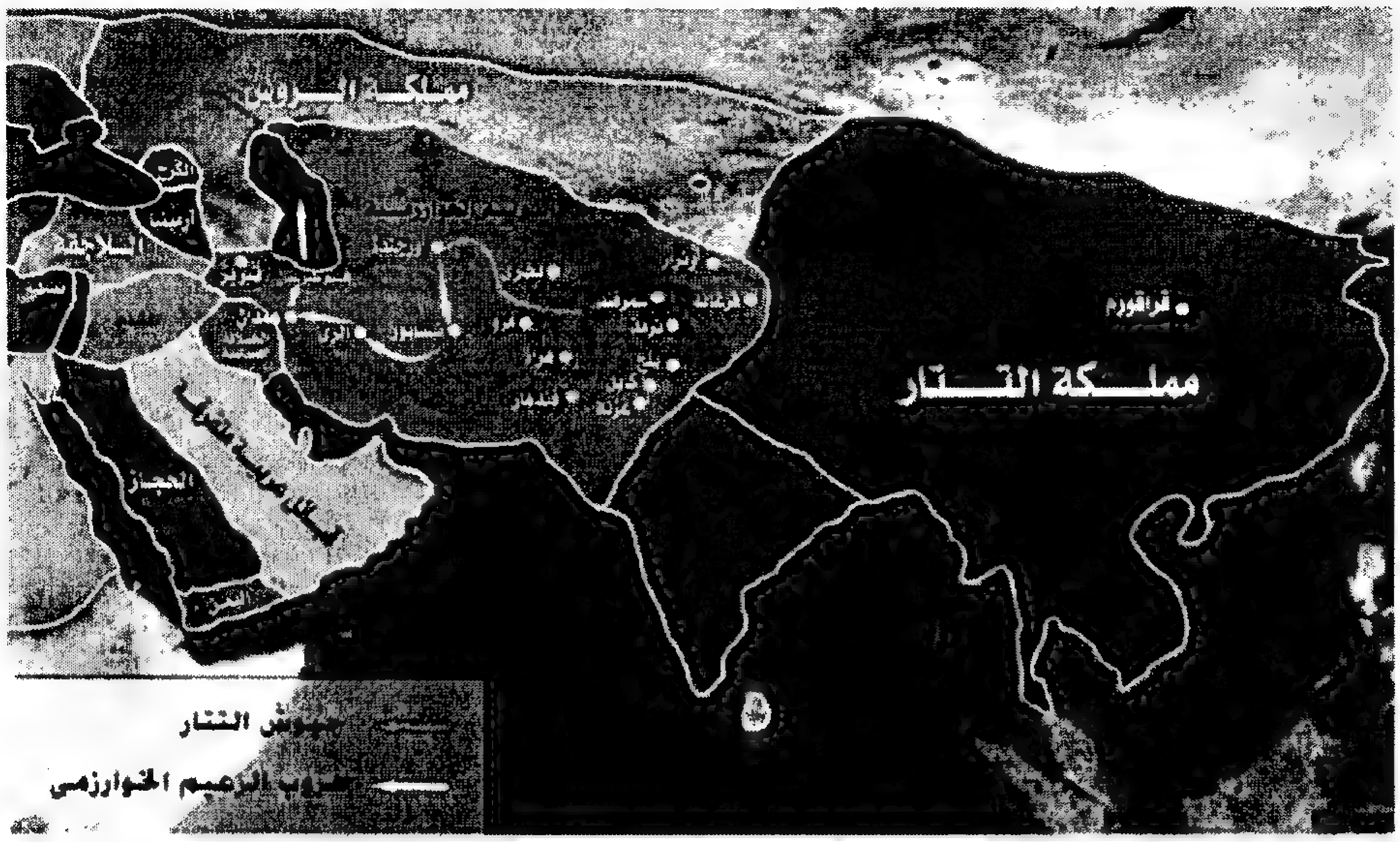
البلاد والإمارات الإسلامية فى أوائل القرن السابع الهجرى



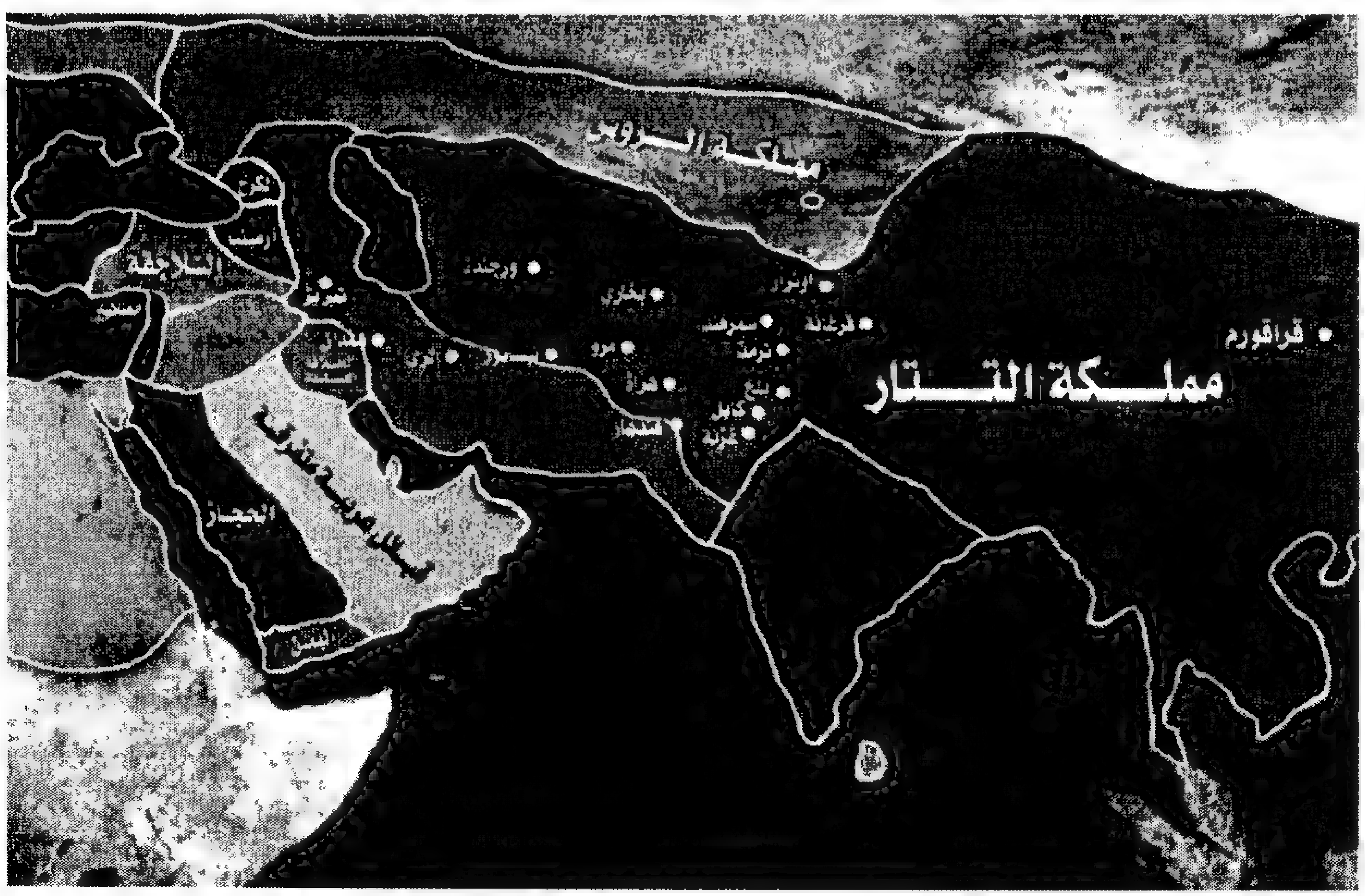
مملكة التتار سنة ٦٣٩هـ



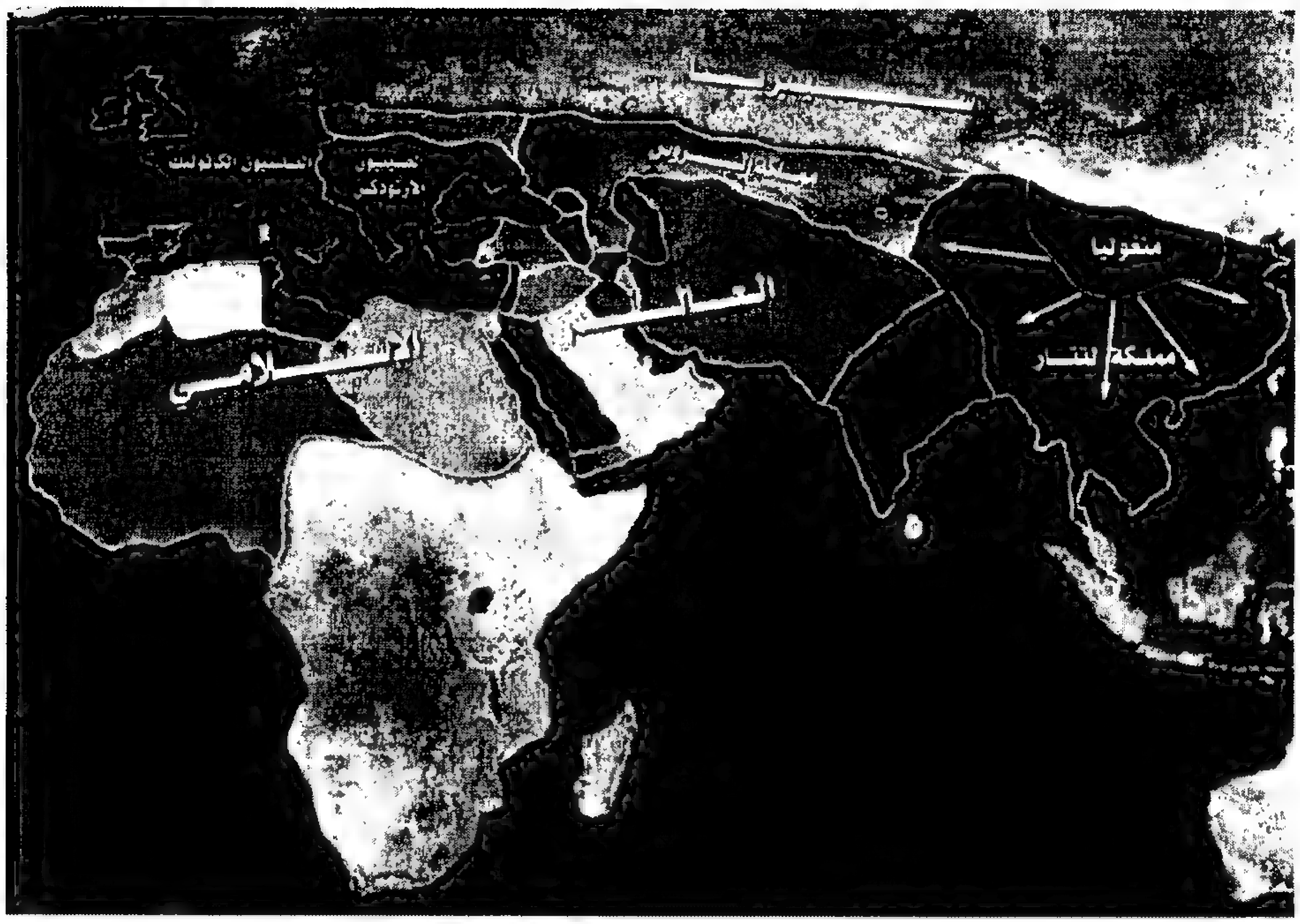
بدء الغزو التترى للدولة الخوارزمية



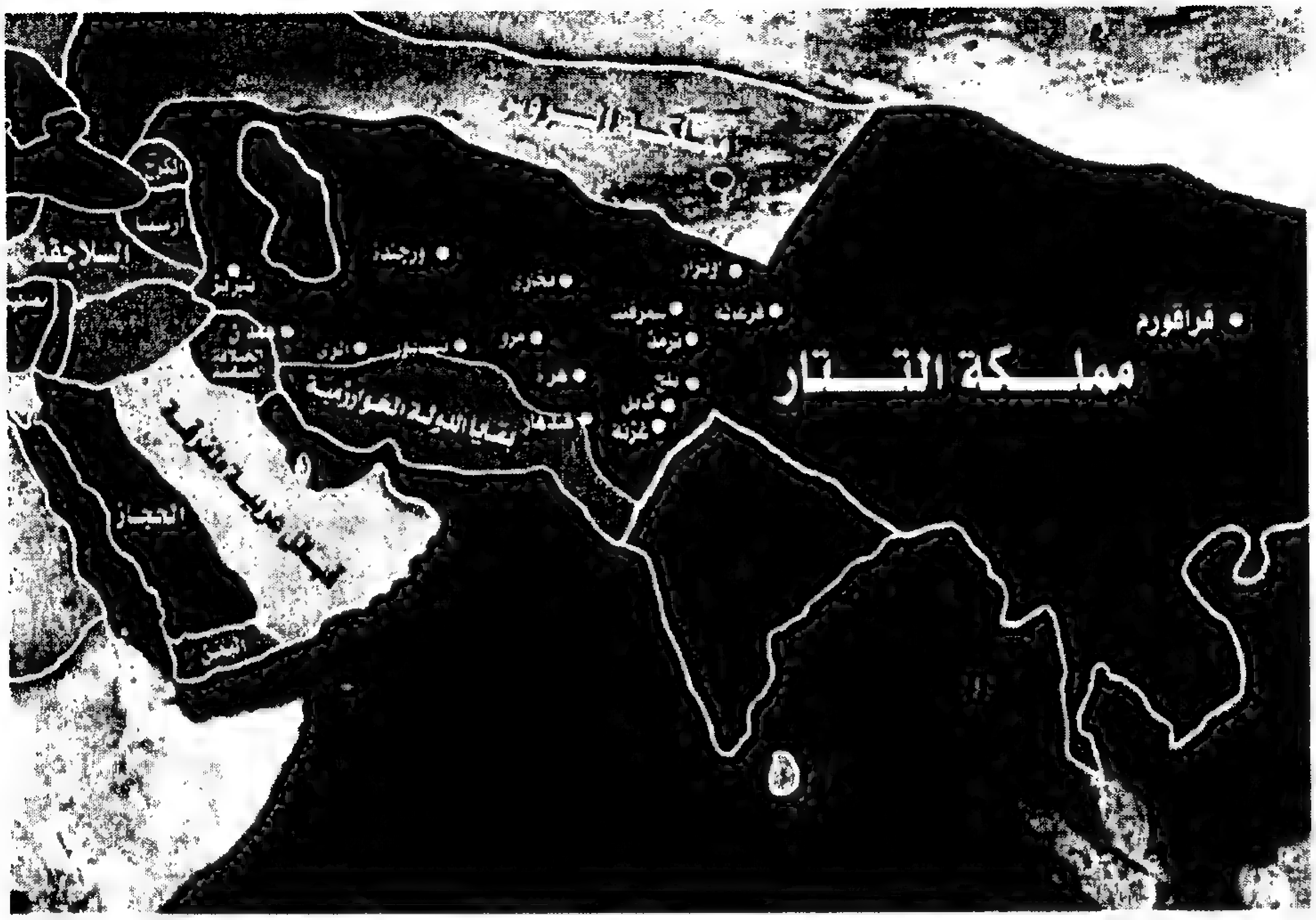
غزو التتار للدولة الخوارزمية



غزو التتار لأقاليم باكستان وإيران وأذربيجان سنة ٦٢٩هـ



ظهور مملكة المغول التتار عام ٦٠٣هـ



توسع مملكة التتار داخل العالم الإسلامى حتى سنة ٦٢٤هـ

بداية دولة المماليك ونهايتها

الممالك والدول لا تدوم، هكذا تعلمنا من التاريخ، فالأيام دول، فقيام دولة أو إمبراطورية تكون خلفاً لأخرى أو على حسابها وعلى أطلالها، وهكذا كانت دولة المماليك الأولى، التى عرفت بالمماليك البحرية، أما دولة المماليك الثانية فعرفت بدولة المماليك البرجية.

فدولة المماليك التى ظهرت فى مصر أولاً ثم حكمت الشام أيضاً بعد ذلك وأرض الحجاز والعراق قد دامت أكثر من قرنين ونصف من الزمان من عام ١٢٥٠م حتى عام ١٥١٧م.

كانت الدولة الأولى للمماليك البحرية قد تأسست فى القاهرة عقب مقتل توران شاه ابن الملك الصالح ـ كما سيأتى ذكر ذلك ـ على يد المماليك.

وكان أول ملوك المماليك البحرية هو السلطان المعز عز الدين أيبك وآخرهم الصالح زين الدين حاجى.

ويعتبر بعض المؤرخين أن شجرة الدر أولى سلاطين المماليك، وقد دام حكمها نحو ثمانين يوماً، إلا أن شجرة الدر رغم كونها كانت جارية الملك الصالح نجم الدين الأيوبى إلا أنه أعتقها وتزوجها وأنجب منها، فهى تحتسب على الأيوبيين وليس المماليك.

وانتهت دولة المماليك البرجية وحكم المماليك بهزيمة السلطان قنصوه الغورى ثم مقتل آخر سلاطين المماليك طومان باى، واحتلال العثمانيين لمصر بعد موقعة مرج دابق ودخول السلطان العثمانى مصر عام ١٥١٦م، لكن المماليك ظلوا فى مصر والشام ولكن تابعين للدولة العثمانية حتى قضى عليهم محمد على باشا فى مذبحة القلعة.

كانت البداية لظهور دولة المماليك وقوتهم حين توسع السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب فى شراء المماليك واستعان بهم ضد منافسيه الأيوبيين فى الشام وأسكنهم معه فى جزيرة الروضة الواقعة على نيل القاهرة وأسماهم «المماليك البحرية» نسبة إلى سكنتهم بحر النيل أو لقدومهم من وراء البحر.

وبعد وفاة الصالح أيوب أثناء حملة لويس التاسع ملك فرنسا والتى عرفت بالحملة الصليبية السابعة، نصب مماليكه أرملته شجرة الدر سلطانة على مصر.

ولما احتج الأمراء الأيوبية فى الشام والخليفة العباسى المستعصم فى بغداد على هذا التنصيب، تزوجت شجرة الدر من الأمير عز الدين أيبك، أحد أمراء الصالح أيوب، وتنازلت له عن الحكم وبذلك بدأ حكم الدولة المملوكية البحرية.

كان الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار هو مقدم المماليك البحرية، إلا أن السلطان ايبك اغتاله بعد أن أصبح للبحرية سطوة كبيرة فى البلاد تهدد عرشه، ففر عدد كبير من المماليك البحرية من مصر إلى الشام والكرك وأماكن أخرى، ثم عادوا إلى مصر بعد وفاة أيبك وعاونوا السلطان سيف الدين قطز فى حربه ضد المغول وتمكنوا من هزيمتهم فى معركة عين جالوت.

استمرت دولة المماليك البحرية، وغالبيتهم من الترك، إلى عام ١٣٨١م حين انتقل الحكم إلى المماليك البرجية وغالبيتهم من الشركس.

لعب المماليك البحرية دوراً كبيراً فى التاريخ الإسلامى وتمكنوا من صد هجمات المغول والصليبيين وحماية بلاد المسلمين.

وتمكن السلطان المنصور قلاوون من تحرير طرابلس من أيدى

الصليبيين ثم قضى ابنه الأشرف خليل على آخر معاقلهم فى عكا وساحل الشام، وفى عصر المماليك البحرية تطورت التجارة والثقافة والفنون وفن العمارة.

وتحوى القاهرة ودمشق العديد من مساجدهم ومدارسهم وآثارهم الأخرى.. من أشهر سلاطين المماليك البحرية الظاهر بيبرس، وقطز، والمنصور قلاوون، وابناه الأشرف صلاح الدين خليل الأشرف خليل والناصر محمد.

المماليك البحرية

١ ـ المعز عز الدين أيبك ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م.

٢ ـ المنصور نور الدين على بن أيبك ١٢٥٧ ـ ١٢٥٩م.

٣ ـ المظفر سيف الدين قطز ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م.

٤ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م.

٥ ـ السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة قان ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م.

٦ ـ العادل بدر الدين سُلامش ١٢٧٩ ـ ١٢٧٩م.

٧ ـ المنصور سيف الدين قلاوون ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م.

٨ ـ الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م.

٩ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م «للمرة الأولى».

١٠ ـ العادل زين الدين كتبغا ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م.

١١ ـ المنصور حسام الدين لاجين ١٢٩٦ ـ ١٢٩٨م.

١٢ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثانية) ١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م.

١٣ ـ المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ١٣٠٨ ـ ١٣٠٩م.

١٤ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثالثة) ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م.

١٥ ـ المنصور سيف الدين أبو بكر الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤١ ـ ١٣٤١م.

١٦ ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤١ ـ ١٣٤٢م.

١٧ ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤٢ ـ ١٣٤٢م.

١٨ ـ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥م.

١٩ ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦م.

٢٠ ـ المظفر سيف الدين حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧م.

٢١ ـ الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٤٧ ـ ١٣٥١م.

٢٢ ـ الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٥١ ـ ١٣٥٤م.

٢٣ ـ الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية) ١٣٥٤ ـ ١٣٦١م.

٢٤ ـ المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٦١ ـ ١٣٦٣م.

٢٥ ـ الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٦٣ ـ ١٣٧٦م.

٢٦ ـ المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٧٦ ـ ١٣٨١م.

٢٧ ـ الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد ابن قلاوون ١٣٨١ ـ ١٣٨٢م.

لقد كان الأيوبيون منذ زمن صلاح الدين الأيوبى يجلبون عسكر مماليك متدربين على الحروب، حتى زمن الصالح أيوب فى قمة صراعاته

مع أيوبيى الشام تخلى عنه مماليكه وعسكره من الخوارزمية الذين كانوا يعملون لديه بالأجرة.

فاضطر إلى جلب رقيق صغار يربيهم عنده ويدربهم ويصبح ولاؤهم خالصاً إليه بدلاً من المرتزقة الكبار الذين تتبدل ولاءاتهم حسب الظروف، وبدأ بشراء مماليك صغار السن وبنى لهم معسكرا وأبراجا فى جزيرة الروضة وأسكنهم هناك فسموا بالمماليك البحرية. وجعل لهم نظام معيشة وتدريباً معيناً، وقد كان شديد العطف عليهم حتى أحبوه وأخلصوا له وقدمهم على الكرد والعرب.

وقد انتسبت تلك المماليك إليه وتلقبوا بلقبه، فكان يقال عنهم "المماليك الصالحية النجمية" ويضاف لأسمائهم لقب "الصالحى النجمى"، مثل عز الدين أيبك الصالحى النجمى، والظاهر بيبرس الصالحى النجمى، وقلاوون الصالحى النجمى، وغيرهم.

وعند وفاة الصالح أيوب فى المنصورة، وكانت الحرب قائمة ضد الفرنج الصليبيين ويقودهم لويس التاسع ملك فرنسا عند غزوهم دمياط وكانوا متجهين إلى القاهرة، فجلب المماليك ابنه توران شاه من حصن كيفا كى يقود الحرب ويستلم الحكم، وبعد انتهاء معركة المنصورة، وأسر لويس التاسع سنة ١٢٥٠، أساء السلطان الجديد التصرف مع المماليك فاغتالوه عند فارسكور بعد ذلك تسلطنت شجرة الدر أرملة الصالح أيوب على عرش مصر بمساندة وتأييد المماليك البحرية وبذلك فقد الأيوبيين سيطرتهم على مصر. لم يرض كلا من الأيوبيون فى الشام فى دمشق والخليفة العباسى المستعصم بالله فى بغداد بانتزاع عرش الأيوبيون فى مصر وتنصيب شجرة الدر ورفضوا الاعتراف بسلطانها فقام الأمراء الأيوبيين بتسليم الكرك للملك المغيث عمر، ودمشق للملك الناصر صلاح الدين يوسف الذى قبض على عدة من أمراء مصر فى دمشق فرد المماليك

بتجديد حلفهم لشجرة الدر ونصبوا عز الدين أيبك أتابكا وقبضوا على الأمراء الميالين للناصر يوسف فى القاهرة.

وبعث المستعصم إلى الأمراء فى مصر كتاباً يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالا».

فكان عدم اعتراف كل من الخليفة العباسى وكذلك الأيوبيين فى دمشق بسلطنة شجرة الدر قد أربك المماليك فى مصر وأقلقهم فراحوا يفكرون فى وسائل توفيقية ترضى الأيوبيين والخليفة العباسى وتمنحهم شرعية لحكم البلاد، فقرر المماليك تزويج شجرة الدر من أيبك ثم تتنازل له عن العرش فيرضى الخليفة العباسى بجلوس رجل على كرسى السلطنة، ثم البحث عن رمز أيوبى يشارك أيبك الحكم اسمياً فيهدأ خاطر الأيوبيين ويرضون عن الوضع الجديد.

وتزوجت شجرة الدر من أيبك وتنازلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوماً بإرادة صلبة وحذق غير متناهٍ فى ظروف عسكرية وسياسية غاية فى التعقيد والخطورة بسبب غزو العدو الصليبى للأراضى المصرية وموت زوجها سلطان البلاد الصالح نجم الدين أيوب بينما الحرب ضد الصليبيين دائرة على الأرض الواقعة بين دمياط والمنصورة. نصب أيبك سلطاناً واتخذ لقب الملك المعز. فى محاولة لإرضاء الأيوبيين والخليفة العباسى قام المماليك بإحضار طفل أيوبى فى السادسة من عمره وقيل فى نحو العاشرة من عمره وسلطنوه باسم «الملك الأشرف مظفر الدين موسى».

وأعلن أيبك أنه ليس سوى نائب للخليفة العباسى وأن مصر لا تزال تابعة للخلافة العباسية كما كانت من قبل.

أما سبب تسمية المماليك الأوائل بالمماليك البحرية فيرجع إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذى أكثر من جلبهم وشرائهم كما ذكرنا

وقد أجمع معظم المؤرخين والمحدثين على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية، وأول من سماهم بذلك الاسم نسبة إلى بحر النيل الذى أحاط بثكناتهم فى جزيرة الروضة.

ولكن هناك من يرى سبباً آخر لاختلاف هذا المسمى عليهم، لأن المؤرخين المعاصرين للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبى شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، وأن هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقريزى وأبى المحاسن. وقالوا إن الفاطميين من قبل، كانت لهم طائفة من الجند تعرف «بالغز البحرية»، وكان للسلطان العادل الأول، جد الصالح أيوب، فرقة من المماليك أسماها «البحرية العادلية».

وكذلك يروى الخزرجى أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت٦٤٧هـ) الذى كان معاصرا للصالح أيوب فى مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم فى العدد خارجاً عن حلقته وعساكر أمرائه.

ولهذا يرجح البعض من المؤرخين أن سبب التسمية «المماليك البحرية» لكونهم قادمين من بلاد ما وراء البحر، وأطلق عليهم جوانفيل أحد رجال الحملة الصليبية السابعة بأنهم رجال ما وراء البحر، حيث إنهم جلبوا من بلاد القوقاز وآسيا الصغرى عبر خليج القرم والقسطنطينية، ثم البحر المتوسط ثم ميناء دمياط والإسكندرية.

ولهذا أطلق المؤرخون على مماليك الدولة الثانية لهم اسم المماليك البرجية الشراكسة لأنهم كانوا يسكنون القلعة (مثل البرج).

ولا يمنع أن يكون سبب التسمية بالمماليك البحرية بجمع الرأيين، فهم جلبوا من وراء البحار وكان مسكنهم فى روضة النيل، حيث كان نهر النيل

يحيط بهم.

وكانت عاصمة دولتهم مدينة القاهرة.

ومن أبرز سلاطين المماليك البحرية عز الدين أيبك وقطز وبيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذى استعاد عكا آخر معاقل الصليبيين فى بلاد الشام.

ثم قامت المماليك البرجية على المماليك البحرية بانقلاب عسكرى قام به السلطان الشركسى برقوق أول المماليك البرجية والذى عاصر غزو تيمورلنك لبلاد الإسلام ويتصدى له ومنعه من احتلال الشام[١].

واتسعت دولة المماليك فى عهدهم حتى إنهم غزوا جزيرة قبرص وأعادوا العراق للدولة الإسلامية فى القرن التاسع الهجرى. وكان آخر المماليك البرجية «طومان باى» الذى أعدمه سليم الأول العثمانى على باب زويلة بالقاهرة.

■ ■ ■

(١) اقرأ كتابنا «تيمورلنك» ـ الناشر دار الكتاب العربى.

سبب استعانة الملك الصالح نجم الدين الأيوبى بالمماليك

أسس السلطان صلاح الدين الأيوبى الدولة الأيوبية عام ٥٦٩هـ وقام بتوحيد القطر المصرى وبلاد الشام لمواجهة الاحتلال الصليبى للقدس وبعض مدن بلاد الشام، وظلت دولته موحدة طوال فترة حكمه التى ظلت عشرين سنة استطاع تحرير بيت المقدس من أيدى الاحتلال الصليبى.

وقد امتدت دولته، فحكم بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن وأجزاء من العراق وتركيا وليبيا والنوبة حتى تمت محاصرة الصليبيين فى ساحل ضيق على البحر المتوسط فى الشام.

وبعد وفاة صلاح الدين تم تقسيم الدولة الأيوبية بين أولاده وأخيه العادل، وبدأ الصراع بين الأيوبيين مبكراً بعد وفاة مؤسس الدولة صلاح الدين وانتهى بسيطرة الملك العادل أخى صلاح الدين على أمور الدولة وانحصر ميراث الحكم فى أولاده ولكن الصراع لم ينته فقد استمر فى أولاد الملك العادل نفسه.

وأدى هذا الصراع بين الحكام الأيوبيين حتى تفتت الدولة وأصبحت ممالك صغيرة فى الشام ومصر.

وأدى هذا الخلاف إلى تحالف الأيوبيين مع أعدائهم الصليبيين لقتال بعضهم البعض، فحارب أمراء الدولة الأيوبية فى الشام أخوانهم حكام الأيوبيين فى مصر.

وفى عام ٦٣٧هـ تولى عرش مصر الصالح نجم الدين الأيوبى، فقام

الأمراء الأيوبيون فى الشام كالعادة بالتقاتل معه وجرت بينهم الحروب حتى إنهم عقدوا اتفاقاً مع الصليبيين تنازلوا بموجبه عن القدس للصليبيين كى يقاتلوا معهم الملك الصالح بمصر.

وقام الجيش الموحد المكون من الأمراء الأيوبيين فى الشام مع الصليبيين لمحاربة الملك الصالح الأيوبى بمصر، فاستعان الملك الصالح بالجنود الخوارزمية المأجورين للقتال معه ضد أعدائه من الأيوبيين والصليبيين وذلك عام ٦٤٢هـ.

وكانت هذه الموقعة قد وقعت بالقرب من مدينة غزة وحقق جيش الملك الصالح انتصاراً كبيراً وقتل من الصليبيين أعداداً كبيرة وصلت إلى ٣٠ ألف مقاتل وأسرت مجموعة كبيرة منهم ومن الأيوبيين فى الشام.

واستطاع الملك الصالح بمن معه من جنود مأجورين وتابعين له تحرير المسجد الأقصى والكثير من المدن التى احتلها الصليبيون فى الشام وذلك عام ٦٤٣هـ(١).

ثم إن الملك الصالح أكمل طريقه فى اتجاه الشمال، ودخل دمشق، ووحّد مصر والشام من جديد، بل اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر بالفعل طبرية وعسقلان وغيرهما.

غير أنه حدث تطور خطير جداً فى جيش الصالح أيوب رحمه الله، حيث انشقت عن جيشه فرقة الخوارزمية المأجورة التى استعان بها(٢) وذلك بعد أن استمالها أحد الأمراء الأيوبيين بالشام مقابل دفع مال أكثر من المال الذى

(١) كان هذا هو التحرير الأخير للقدس من الصليبيين ولم يدخلها أى جيش صليبى حتى الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر ١٩١٧م حيث احتلها الجيش البريطانى.

(٢) الجنود الخوارزمية هم من تبقى من جيش جلال الدين الخوارزمى سلطان الدولة الخوارزمية التى قضى عليها جنكيز خان والمغول، وشرد جنودها وأصبحوا جنوداً مرتزقة وقد استعان بهم الملك الصالح أيوب فى صراعه مع أعدائه من الأيوبيين والصليبيين وساعدوه فى تحرير القدس من الصليبيين ثم انقلبوا عليه.

يدفعه لهم الصالح أيوب، ولم تكتف هذه الفرقة بالخروج، بل حاربت الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه فى هذه الحرب إلا جيشه الأساسى الذى أتى به من مصر، وعلى رأسه قائده المحنك ركن الدين بيبرس.

وخرج الصالح أيوب من هذه الحرب، وقد أدرك أنه لابد أن يعتمد على الجيش الذى يدين له بالولاء لشخصه لا لماله، فبدأ فى الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وكانت هذه الطائفة «المماليك» التى عرفت بالمماليك البحرية والتى تأسست منهم دولة المماليك بعد وفاة الملك الصالح.

وكان الصالح أيوب ـ ومن تبعه من الأمراء ـ لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل على العكس من ذلك تماماً فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التى تربط بين المالك والمملوك هى رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، كلها روابط تعتمد على الحب فى الأساس، لا على القهر أو المادة، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذى يشتريهم لقب «الأستاذ» وليس لقب «السيد».

ويشرح المقريزى رحمه الله كيف كان يتربى المملوك الصغير الذى يُشترى وهو مازال فى طفولته المبكرة، فيقول: «إن أولى المراحل فى حياة المملوك هى أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ فى تعلم مبادىء الفقه الإسلامى، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويُهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الاسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب. وبهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشأون عادة وهم يعظمون أمر الدين الاسلامى جداً، وتتكون لديهم خلفية واسعة جداً عن الفقه الإسلامى، وتظل مكانة العلم

والعلماء عالية جداً عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التى حدثت فى زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم فى الرأى».

ولذلك ظهر فى زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال الأئمة العز بن عبد السلام والنووى وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن حجر العسقلانى وابن كثير والمقريزى وابن جماعة وابن قدامة المقدسى رحمهم الله جميعاً، وظهرت أيضا غيرهم أعداد هائلة من العلماء.

إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمى بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جداً فى المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف فى الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً فى المجال العسكرى والإدارى، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.

وهذا كله يثبت أقدام المماليك تماماً فى أرض القتال وفى كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذى اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحياناً كان السلطان الصالح أيوب يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيراً ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حباً كبيراً حقيقياً، ويدينون له بالولاء التام، وهذا ما أراده الملك الصالح من تحقيقه بعد خيانة الجنود الخوارزمية المأجورين له.

وكان المملوك إذا أظهر نبوغاً عسكرياً ودينياً فإنه يترقى فى المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح قائداً لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أعطى بعض الإقطاعات فى الدولة فيمتلكها، فتدر عليه أرباحاً وفيرة، وقد يُعطى

إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة أمير، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق فى الجيش وهكذا.

وكان المماليك ينتسبون إلى السيد الذى اشتراهم، فالمماليك الذين اشتراهم الملك الصالح يعرفون بالصالحية والذين اشتراهم الملك الكامل يعرفون بالكاملية وهكذا. وزاد عدد المماليك الصالحية وقوى نفوذهم فى عهد الملك الصالح حتى بنى لنفسه قصراً على النيل وبنى لهم قلعة بجواره فى الروضة ـ روضة النيل بالقاهرة ـ واشتهرت المماليك الصالحية بالمماليك البحرية ووحد الملك الصالح ملكه بهم.

أسماء سلاطين المماليك البرجية هم:

١ ـ ١٣٨٢ ـ ١٣٩٩: الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس اليبغاوى.

٢ ـ ١٣٩٩ ـ ١٤٠٥: الناصر فرج بن برقوق.

٣ ـ ١٤٠٥ ـ ١٤٠٥ المنصور عبد العزيز بن برقوق.

٤ ـ ١٤٠٥ ـ ١٤١٢ الناصر فرج بن برقوق «عاد للحكم مرة ثانية».

٥ ـ ١٤١٢ ـ ١٤١٢ المستعين بالله أبو الفضل العباسى (ليس من المماليك إنما هو الخليفة العباسى).

٦ ـ ١٤١٢ ـ ١٤٢١ المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى.

٧ ـ ١٤٢١ ـ ١٤٢١ المظفر أحمد بن الشيخ.

٨- ١٤٢١ ـ ١٤٢١ الظاهر سيف الدين ططر.

٩ ـ ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ الصالح ناصر الدين محمد بن ططر.

١٠ ـ ١٤٢٢-١٤٣٨ الأشرف سيف الدين برسباى.

١١ ـ ١٤٣٨ ـ ١٤٣٨ العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى.

١٢ ـ ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ الظاهر سيف الدين جقمق.

١٣ ـ ١٤٥٣ ـ ١٤٥٣ المنصور فخر الدين عثمان جقمق.

١٤ ـ ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ الأشرف سيف الدين إينال العلائى.

١٥ ـ ١٤٦٠ ـ ١٤٦٠ المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال.

١٦ ـ ١٤٦٠ ـ ١٤٦٧ الظاهر سيف الدين خُشدقم.

١٧ ـ ١٤٦٧ ـ ١٤٦٨ الظاهر سيف الدين بلباى المؤيدى.

١٨ ـ ١٤٦٨ ـ ١٤٦٨ الظاهر تمر بغا الرومى.

١٩ ـ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ الأشرف سيف الدين قايتباى.

٢٠ ـ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٧ الناصر محمد بن قايتباى.

٢١ ـ ١٤٩٧ ـ ١٤٩٧ الظاهر قانصوه.

٢٢ ـ ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨ الناصر محمد بن قايتباى (عاد للحكم مرة ثانية).

٢٣ ـ ١٤٩٨ ـ ١٥٠٠ الظاهر قانصوه الأشرفى.

٢٤ ـ ١٥٠٠ ـ ١٥٠١ الأشرف جنبلاط.

٢٥ ـ ١٥٠١ ـ ١٥٠١ العادل طومان باى الأول.

٢٦ ـ ١٥٠١ ـ ١٥١٦ الأشرف قانصوه الغورى.

٢٧ ـ ١٥١٦ ـ ١٥١٧ العادل طومان باى الثانى.

■ ■ ■

نهاية دولة المماليك (البرجية)
ومقتل آخر ملوكها فى القاهرة

كانت نهاية دولة المماليك (البرجية) على أيدى الدولة العثمانية الجديدة التى كان يسعى سلطانها سليم الأول إلى جعل الخلافة الإسلامية العباسية الصورية فى مصر أن تكون فى دولته، فبعد أن تخلص السلطان سليم الأول من شر الصفويين التفت إلى دولة المماليك وكان شديد الحنق عليهم لعدة أسباب منها:

- مساعدة السلطان قنصوه الغورى المملوكى للصفويين أثناء قتالهم مع العثمانيين.

- وجود خلاف بين العثمانيين والمماليك على إمارة ذى القادر فى شمال سوريا على الحدود الفاصلة بين الدولتين.

- شعر قنصوه الغورى بعزم سليم الأول على ذلك فأرسل إليه سفيرا ليهدئ الأمور ولكن سليم الأول قد قرر منازلة المماليك والاستيلاء على الشام ومصر فطرد السفير وتوجه بجيوشه سريعاً إلى الشام ليلتقى مع المماليك فأعد قنصوه الغورى جيوشه وتوجه للقاء العثمانيين.

وعندما أيقن «قانصوه الغورى» من وقوع الحرب بينه وبين العثمانيين لجأ إلى تحريض أهل دمشق ليشتركوا معه فى الحرب، واتهم العثمانيين بخيانة فكرة الجهاد الإسلامى فى أوروبا، وأشاع أن السلطان العثمانى قد استعان بجنود من النصارى والأرمن ليحارب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين.

ولكن أهل دمشق لم يصدقوا هذه الاتهامات لاقتناعهم بأن العثمانيين منذ

قرون وهم يجاهدون فى الميدان الأوروبى بل وساعدوا المماليك أنفسهم فى حروبهم ضد البرتغاليين مثلما حدث فى عهد السلطان «بايزيد الثانى»، وذلك عندما دارت رحى المعركة وانفصل ولاة الشام بمن معهم والتحقوا بجيش العثمانيين فانتصر وانهزم المماليك رغم الشجاعة التى أبداها الملك الأشرف.

إضافة إلى أن السلطان العثمانى قد جذب ولاة الشام فى صفه لقتال المماليك ووعدهم بالإبقاء عليهم فى إماراتهم إذا ما تم له النصر ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك.

والتقى الجمعان فى معركة مرج دابق فى ٢٦ رجب ٩٢٢هـ على مشارف حلب فى مكان يسمى «مرج دابق» واحتدم القتال العنيف بينهما فتسلل ولاة الشام بجيوشهم للعثمانيين، فضعف أمر المماليك وهزموا هزيمة منكرة وتمزقت قواتهم وقتل قنصوه الغورى فى المعركة، وبهذه المعركة أصبحت الشام فى قبضة سليم الأول أى ما يعادل نصف دولة المماليك وأول سقوط هذه الدولة ذات الأمجاد السابقة.

فقد سرت إشاعة فى جيش المماليك أن الغورى سقط قتيلا، فخارت عزائمهم ووهنت قواتهم، وفرّوا لا يلوون على شيء، وضاع فى زحام المعركة وفوضى الهزيمة والفرار، نداء الغورى وصيحته فى جنوده بالثبات والصمود وسقط عن فرسه جثة هامدة من هول الهزيمة، وتحقق للعثمانيين النصر الذى كان بداية لأن يستكمل سليم الأول فتوحاته فى الشام وأن يضم المدن واحدة بعد الأخرى، بعدها سلّم معظمها له بالأمان دون قتال.

ودخل السلطان سليم الأول حلب وحماة وحمص ودمشق بالترحيب وأرسل إلى طومان باى خليفة قنصوه الغورى على مصر يعرض عليه حقن الدماء على أن تصبح مصر وغزة تابعتين للدولة العثمانية ويحكمها طومان باى باسمها ويدفع خرجاً سنوّياً، ولكن المماليك قتلوا رسول سليم الأول، فصمم السلطان سليم الأول على الحرب، فالتقى بالمماليك فى غزة

والريدانية وكان النصر حليفه، وبذلك صارت مصر والشام والحجاز واليمن تحت سيطرة الدولة العثمانية.

ويذكر المؤرخون أن هزيمة السلطان قنصوه الغورى لم تكن بسلاح بنى عثمان فقط، فقد لجأ إلى بعض الأمراء الخونة من المماليك من أمثال خاير بك (نائب السلطان على حلب) وغزالى بك، وعد الأول بجعله نائبه على مصر، والثانى بجعله نائبه على الشام، وبالفعل فى بداية المعركة هجم المماليك على الجيش العثمانى وهزموهم هزيمة منكرة، وهمّ السلطان سليم بالهرب ولكن الوزراء سعوا بالفتنة، فانسحب خاير بك بمن معه من الجنود ووجد السلطان الغورى نفسه واقفاً تحت السنجق فى نفر قليل وهو ينادى: يا أغوات هذا وقت النجدة لكن لم يجبه أحد.

وانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ، صار يضرب بسيفه يميناً وشمالاً وينادى على سليم أن يتقدم، ثم أصيب بفالج أبطل شقه وأرخى فمه وانقلب على الأرض ولم يعلم له خبر بعد الواقعة. وأصبح الطريق ممهداً لسليم الأول لدخول مصر وضمها إلى دولة بنى عثمان وجعل الخلافة الإسلامية الصورية بالقاهرة خلافة حقيقية فى دولة العثمانيين.

وبتلك الهزيمة للمماليك انتهت دولتهم فى بلاد الشام ولم يتبق إلا مصر، حيث قد أناب الغورى ابن أخته طومان باى على مصر، ليصبح آخر سلاطين المماليك فى مصر كما سيأتى.

■ ■ ■

آخر سلاطين المماليك فى مصر

وصلت أخبار هزيمة المماليك ومقتل السلطان الغورى فى مرج دابق إلى القُطر المصرى، فاجتمع أمراء المماليك وقرروا تعيين طومان باى سلطانا عليهم، وكان الأشرف طومان باى نائب الغورى على مصر أثناء خروجه لملاقاة سليم الأول، رفض طومان باى فى البداية السلطنة، وقبلها بإلحاح العارف بالله الشيخ أبو السعود الجارجى، فقد كان طومان يعلم حقيقة الأوضاع المالية والعسكرية بحكم قرابته للسلطان الغورى وبحكم انتمائه إلى طبقة المماليك، فقد فرَّق الغورى خزانة البلاد على الأمراء ليغريهم بالخروج معه إلى الشام لملاقاة جيش ابن عثمان قبل أن يتقدم نحو مصر.

كان طومان باى فى موقف عصيب؛ فمن أين له بالأموال التى تسد جوع المماليك للمال وهم لا يتحركون إلا إذا قبضوا، لذلك ذهب الجميع إلى العارف بالله سعود الجارجى فى زاويته بمصر القديمة، وهناك أقسم الأمراء على المصحف الشريف يمين الولاء للدودار طومان باى "ألا يخونوه ولا يغدروا به، وألا يخامروا عليه" ثم حلفوا ألا يعودوا إلى ظلم الرعايا.

أعطى السلطان الجديد كل مملوك ثلاثين ديناراً وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً حتى ترضى نفوسهم ويخرجوا لملاقاة الجيش العثمانى، لكنهم رموا بتلك النفقة فى وجهه قائلين: «لا نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك»، ويرد عليهم طومان باى بأن الخزانة خاوية وقد أنفق عليهم الغورى ولم يساندوه فى مرج دابق وتركوه يموت قهراً، فاقترحوا عليه أن يصادر أموال الأوقاف ويستولى على خراج الأرض والعقارات ولكنه امتنع وقال «ما يحدث فى أيامى هذه المظلمة أبدا».

كان طومان باى حريصاً على تجنب الظلم أو المساس بحقوق الناس أو تعاليم الشريعة حتى فى هذه الظروف الاستثنائية، ولو فعل لما لامه أحد، ولكنه كان طرازاً من الحكام لم نسمع عنه منذ عصر الخلفاء الراشدين ومن نهج نهجهم من الملوك العادلين.

موقعة الريدانية

مع نهاية شهر ذى الحجة من عام ٩٢٣ هجرية، كانت سحب الخطر تتجمع على الديار المصرية مع اقتراب الجيش العثمانى من الشرقية، كان طومان باى يريد أن يخرج لملاقاة ابن عثمان وجنوده عند أطراف الشرقية من ناحية الأرض المنزرعة، قبل أن يستريح السلطان العثمانى وجنوده عقب اختراقهم صحراء سيناء، ولكن أمراءه ومماليكه كانوا منهكى القوى، فاقدى العزيمة، فآثروا الانتظار خلف تحصيناتهم، وجهلوا أنهم بذلك ينهون دولتهم ببطء.

ولم يقف طومان باى مكتوف الأيدى، فمن معسكره قام بحفر خندق يبدأ من الجبل الأحمر عند مدينة نصر حالياً واختراق صحراء مصر الجديدة إلى آخر غيطان المطرية، ولم يمض الوقت إلا يسيرا حتى هجم الجيش العثمانى على معسكر الريدانية فى يوم ٢٩ من ذى الحجة ٩٢٣هـ/٢٣ من يناير ١٥١٧م، فكانت بين الفريقين واقعة أشد من مرج دابق، وقُتل من العثمانيين ما لا يحصى عدده، لكن تدب الروح من جديد إلى الجيش العثمانى ويجيئون من كل ناحية ويضربون على المماليك بسلاح العصر الجديد، وهى البنادق.

لم تكن إلا ساعة يسيرة حتى تمت هزيمة المماليك، وثبت الأشرف طومان باى وهو يقاتل بنفسه مع نفر قليل، فلما تكاثرت عليه العثمانية ولى واختفى.

وفى اليوم التالى الجمعة آخر يوم من ٩٢٣ هجرية، خُطب باسم سليم

شاه على منابر القاهرة «اللهم انصر السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً مبيناً، يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين».

دخل العثمانيون القاهرة، وطومان باى لا يريد أن يعترف بالهزيمة، وقد نقل سليم شاه معسكره من الريدانية إلى بولاق وتردد اسمه على منابر القاهرة.

فلما كانت ليلة الأربعاء خامس المحرم بعد صلاة العشاء هجم طومان باى على السلطان العثمانى بالطواق وأطلق عليه جمالاً محملة بالتبن المشتعل. ثم هجم ومعه الجمع الغفير من عامة الشعب المصرى، وصار المماليك يهجمون على العثمانيين فى البيوت ويقتلونهم.

لكن العثمانيين مرة أخرى استردوا قواتهم وطردوا المصريين من بولاق، وقتلوا جماعة كبيرة من العامة عقاباً لهم على تأييد طومان باى، واستمر القتال ليلة الخميس وليلة الجمعة حتى يوم السبت، واتخذ طومان باى من جامع شيخون العمري بالصليبية مركزاً لقيادة المقاومة.

واستمر طومان باى يكر على عسكر العثمانيين يقتل منهم فى كل يوم، فلما رأى تكاسل العسكر عن القتال وتفرقت الأمراء كل فى ناحية، وهو يقاتل وحده فى نفر قليل هرب وتوجه ناحية بركة الحبش (عين الصيرة).

ولما هرب السلطان وقعت فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان، فقد استباحت الجنود العثمانية فى الصليبية وأحرقوا جامع شيخون وأحرقوا البيوت التى حوله، وصاروا يقطعون رقاب العوام والغلمان انتقاماً من طومان باى، وبلغ مقدار القتلى فى هذه الأيام الأربعة فوق العشرة آلاف.

ثم تجرى مفاوضات بين طومان باى فى البهنسا (فى الجيزة) وبين سليم

شـاه، حيث يرفض طومان الاعتـراف لسليم بالزعامة، ويعود طومان إلى الشمال ويقابل سليم فى بر الجيزة عند منوات لكنه يهزم مرة أخرى، ويهرب عند شيخ العرب حسن بن مرعى، ولكنه أوشى بمكانه للسلطان العثمانى.

حينما لام السلطان العثمانى طومان باى على عدم الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر رد عليه بهذه الكلمات:

«إن الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل.. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ أنتم لستم أفرس منا ولا أشجع منا وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان».

ويقال إن سليم أعجب بشجاعة طومان باى، لكن أمراء المماليك من أمثال خاير بك أوغروا صدر سليم على السلطان الأسير حتى قرر أن يتخلص منه نهائياً.

وفى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول خرج موكب السلطان الأسير فى حراسة ٤٠٠ جندى من الانكشارية واخترق شوارع القاهرة ليعلم المصريون أن بطلهم الأسطورى فى طريقه إلى المشنقة، وخرج الناس يلقون نظرة الوداع على آخر سلاطين المماليك، تلك الفئة العسكرية التى أقامت إمبراطورية من أقصى شمال سوريا وحتى النوبة جنوباً، ومن الحجاز واليمن شرقاً حتى برقة غرباً.

يقول المؤرخ ابن إياس وهو شاهد عيان على ما حدث فى كتابه: «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» إن مصر بعد دخول العثمانيين تحولت إلى مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية بعد أن كانت إمبراطورية كبرى، وكثر النهب العثمانى لخيرات مصر كما فعل سلفهم. وانتهت من القاهرة نحو خمسين صنعة، نقل أصحابها لإسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية.

ويضيف:

عند باب زويلة توقف ركب السلطان الأسير طومان باى.. كان فى

حراسة ٤٠٠ جندى من الإنكشارية.. وكان مكبلاً فوق فرسه.. وكان الناس فى القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرة الوداع على سلطان مصر.. وتطلع طومان باى إلى (قبو البوابة) فرأى حبلاً يتدلى، فأدرك أن نهايته قد حانت.. فترجل.. وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة..ثم توقف وتلفت إلى الناس الذين احتشدوا من حول باب زويلة.. وتطلع إليهم طويلاً.. وطلب من الجميع أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات.. ثم التفت إلى الجلاد، وطلب منه أن يقوم بمهمته.

وقد ظلت جثته معلقة ثلاثة أيام ثم دفنت فى قبة السلطان الغورى، وبموته انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العباسية، واستتب الأمر للسلطان سليم بمصر والشام، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

وظل من بقى من المماليك رعايا وموظفين وتابعين للدولة العثمانية التى حملت لواء الخلافة الإسلامية.

وفى أواخر ربيع الثانى أصدر السلطان سليم الول أوامره للخليفة العباسى بالسفر إلى اسطنبول، فصدع للأمر، وأصاب الناس هم كبير، وسافر الخليفة «المتوكل على الله» إلى اسطنبول، وهناك ادعى العثمانيون أن الخليفة العباسى تنازل عن الخلافة التى استمرت فى البيت العثمانى حتى قضى عليها كمال أتاتورك فى القرن العشرين.

أما نهاية المماليك ككيان فكانت على يد محمد على باشا والى مصر فيما عرف بمذبحة القلعة.

■ ■ ■

نهاية المماليك
مذبحة القلعة

ظل المماليك فى مصر دون دولة، تابعين للدولة العثمانية يعملون لصالحها ويتولون المناصب العليا فى البلاد مثل شيخ البلد، وزاد فسادهم وعتوهم حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ثم خروجها من مصر سنة ١٢١٦هـ= ١٨٠١م، فسادت مصر حالة من الفوضى والاضطراب، نتيجة لصراع المماليك على الحكم، وانقسامهم على أنفسهم، فبعضهم يسعى إلى السيطرة على الحكم فى البلاد والوصول إلى السلطة بدعم من إنجلترا، التى بدأ شعورها يتنامى بأهمية مصر، وخشيت من عودة النفوذ الفرنسى إليها، ومن ثم فقد حرصت على أن توطد أقدامها فى مصر، وأن يكون أصحاب السلطة فيها من الموالين لها؛ فسعت إلى تأييد تلك الطائفة من المماليك ومعاونتها للوصول إلى الحكم.

أما الفريق الآخر فكان يرى أنه يمكنه الاستقلال بالحكم دون مساعدة من أى قوى خارجية، وذلك بإيجاد نوع من التحالف والتنسيق بين بعض قوى المماليك ذات المصالح المشتركة، والأهداف المتقاربة.

وظهرت قوة أخرى فى مصر لا تقل نفوذاً ولا تأثيراً عن المماليك الذين بدأت قواتهم تخور وشوكتهم تضعف؛ نتيجة الصراع الدائم بينهم والمؤامرت المستمرة.

بدأت تلك القوة الجديدة ـ قوة القيادة الشعبية متمثلة فى العلماء والمشايخ والتجار ـ يزداد تأثيرها ويتسع نفوذها مع ضعف المماليك، وأفرزت تلك القوة زعامات وطنية أصيلة حاولت أن تساهم بشكل جاد فى

توجيه الأمة، وإقالتها من عثرتها، والنهوض بها فى مواجهة الأخطار المتعلقة بها، سواء فى الداخل أو الخارج.

وشعرت تلك القيادة الشعبية والوطنية بحاجة البلاد إلى شخصية قوية يلتف حولها الجميع لتتولى زمام الأمور فى البلاد، وتقود مسيرة الحياة فيها.

ووجدت تلك القيادات بغيتها فى أحد ضباط الحامية العثمانية، حيث توسمت فيه القدرة والكفاءة لتولى حكم مصر، وكان ذلك الضابط هو «محمد على» الذى التفت حوله القيادات الشعبية حتى صدر فرمان ولايته لمصر فى (١٢ صفر ١٢٢٠هـ = ١٢ من مايو ١٨٠٥م).

وسعت تلك القيادات إلى تثبيت دعائم حكم محمد على لمصر، فقاد حملة لجمع التبرعات وتدبير الأموال اللازمة لدفع المرتبات المتأخرة للجنود الذين بدأ التمرد يسرى بينهم، كما كان لتلك القيادات دور مهم فى الإبقاء عليه والياً للبلاد رغم محاولات «الباب العالى» نقله من مصر.

وكان لتحالف تلك القيادات الوطنية ومن حولها جموع الشعب مع محمد على أكبر الأثر فى إلحاق الهزيمة بالحملة العسكرية الإنجليزية التى ضمت نحو أربعة آلاف جندى قرب «رشيد»، فى (١٨من المحرم ١٢٢٢هـ = ٢٣ من مارس١٨٠٧م) والتى جاءت لتأييد بعض عناصر المماليك، وتمكينهم من الوصول إلى الحكم فى مصر ليكونوا أعواناً لهم.

وأحسَّ محمد على بخطورة المماليك، وتهديدهم لأمن واستقرار البلاد، فعمل على إبعادهم عن القاهرة، وتعقبهم فى الصعيد، حتى استطاع أن يخضع الصعيد لحكمه، واستقرت له الأمور، وأبدى له بعض المماليك الذين فروا إلى الصعيد الطاعة والولاء، فسمح لهم بالعودة إلى القاهرة، ولكنهم ظلوا يتآمرون عليه ويدبرون المكائد للتخلص منه.

أصبحت مقاليد السلطة فى مصر بيد محمد على، واستقر له حكم

البلاد، ولكنه بدأ يشعر بالقلق إزاء تصاعد نفوذ القيادة الشعبية، والزعامة الوطنية التى كانت سبباً فى وصوله إلى الحكم، واختارته والياً على البلاد، فبدأ يسعى إلى التخلص منها خوفاً من انفرادها بالحكم بعد أن تُستنزف قوته فى حرب المماليك.

وسعى محمد على إلى الوقيعة بين القيادة الشعبية متمثلة فى المشايخ، ثم نفى السيد «عمر مكرم» خارج القاهرة فى عام (١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م)، واستطاع أن يقلص نفوذ المشايخ، ويحدّ من دورهم فى الحياة العامة.

وبالرغم من محاولات محمد على الدءوبة للتخلص من مراكز القوى فى دولته من زعماء المماليك، فإنه ظل يقاسى من مؤامراتهم وغدرهم، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن المماليك سيتعاونون مع الإنجليز.

وفى بداية شهر (المحرم ١٢٢٦هـ = يناير١٨١١م) سافر محمد على إلى السويس، ليتفقد الأعمال التى كانت فى مينائها، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة فى (١٠ من المحرم ١٢٢٦هـ = فبراير ١٨١١م) بعد أن وصلته الأخبار بضبط رسائل مريبة متبادلة بين مماليك القاهرة، وزملائهم فى الوجه القبلى.

فى تلك الأثناء أرسل إليه السلطان العثمانى «محمود» يطلب منه إرسال قواته إلى نجد للمساعدة فى القضاء على الثورة الوهابية، وعندئذ قرر «محمد على» القضاء على المماليك قبل خروج الجيش بقيادة ابنه «طوسون» إلى «نجد»؛ حتى لا يثوروا ضده بعد خروج الجيش.

أعد «محمد على» مهرجاناً فخماً بالقلعة دعا إليه كبار رجال دولته، وجميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك، فلبى المماليك تلك الدعوة وعدوها دليل رضاه عنهم، وقبل ابتداء الحفل دخل البكوات المماليك على محمد على بالحفاوة، ودعاهم إلى تناول القهوة معه، وشكرهم على إجابتهم

دعوته، وألمح إلى ما يناله ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه فى الموكب، وراح محمد على يتجاذب معهم أطراف الحديث؛ إمعاناً فى إشعارهم بالأمن والود.

وحان موعد تحرك الموكب، فنهض المماليك وبادلوا محمد على التحية، وانضموا إلى الموكب، وكان يتقدم الركب مجموعة من الفرسان فى طليعة الموكب، بعدها كان والى الشرطة ومحافظ المدينة، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤود، ثم المماليك، ومن بعدهم مجموعة أخرى من الجنود الأرناؤود، وعلى إثرهم كبار المدعوين ورجال الدولة.

وتحرك الموكب ليغادر القلعة، فسار فى طريق ضيق نحو باب «العزب»، فلما اجتاز الباب طليعة الموكب ووالى الشرطة والمحافظ، أُغْلِق الباب فجأة من الخارج فى وجه المماليك، ومن ورائهم الجنود الأرناؤود، وتحول الجنود بسرعة عن الطريق، وتسلقوا الصخور على الجانبين، وراحوا يمطرون المماليك بوابل من الرصاص، أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى، وحاولوا الفرار، ولكن كانت بنادق الجنود تحصدهم فى كل مكان، ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبح بوحشية.

وسقط المماليك صرعى مضرجين فى دمائهم، حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث، ولم ينج من المماليك الأربعمائة والسبعين الذين دخلوا القلعة فى صبيحة ذلك اليوم إلا واحد يسمى «أمين بك» كان فى مؤخرة الصفوف، واستطاع أن يقفز بجواده من فوق سور القلعة، وهرب بعد ذلك إلى الشام.

الفوضى تسود المدينة

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة فى الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم، وتفرق الناس، وأقفلت الدكاكين والأسواق، وهرع الجميع إلى بيوتهم، وخلت الشوارع والطرقات من المارة.

وسرعان ما انتشرت جماعات من الجنود الأرناؤود فى أنحاء القاهرة

يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم، ويقتحمون بيوتهم فينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويغتصبون نساءهم، وتجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة.

وكثر القتل، واستمر النهب، وسادت الفوضى ثلاثة أيام، قُتل خلالها نحو ألف من المماليك ونُهب خمسمائة بيت، ولم يتوقف السلب والنهب إلا بعد أن نزل محمد على إلى شوارع المدينة، وتمكن من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط.

وهكذا استطاع محمد على الانفراد بالحكم، ولكن على أشلاء المعارضين من المماليك الذين لجأ من هرب منهم إلى الصعيد ولكن لا حول لهم ولا قوة وانتهى أمرهم وأصبحوا فى ذمة التاريخ.

■ ■ ■

3

قطز فى مصر قبل السلطنة

- ظهور المماليك كقوة عسكرية فى التصدى للحملة الصليبية السابعة وأسر الملك الفرنسى لويس التاسع «معركة المنصورة».
- الخريطة السياسية والعسكرية للمنطقة العربية بعد هزيمة الصليبيين فى معركة المنصورة على أيدى المماليك البحرية.
- نهاية دولة الأيوبيين بمصر بمقتل السلطان توران شاه.
- شجرة الدر على كرسى السلطنة ثمانين يوماً.
- بداية دولة المماليك البحرية فى مصر بتولى أيبك التركمانى الحكم.
- قطز نائباً للسلطان أيبك.. ومواجهة مع المماليك الطامعين فى الحكم.

ظهور المماليك كقوة عسكرية كبرى في معركة المنصورة

انتقل «قطز» العبد من بلاد الشام وانضم إلى مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبى الذى كان يكثر من شراء المماليك ويضمهم إلى جيشه ويربيهم على الولاء لشخصه.

ولأن قطز من أصول ملكية فى الدولة الخوارزمية وقد تعلم فيها فنون القتال وشاهد المعارك والحروب التى دارت بين قومه وبين التتار المغول فقد ساعده ذلك كله فى سرعة ترقيه فى صفوف المماليك الصالحية البحرية وارتقى بسرعة حتى أصبح الساعد الأيمن لأمير جند السلطان الأمير أيبك الذى سيكون له دور هام فى الأحداث السياسية والعسكرية فى مصر والبيت الأيوبى.

فقد جاء قطز إلى مصر وقد تكون فيها جيش له شأن عظيم من المماليك البحرية، تصدى لكل المحاولات الأجنبية لغزو مصر وأهمها الحملة الصليبية السابعة التى قادها الملك الفرنسى لويس التاسع، فقد أظهرت تلك المعركة قوة المماليك العسكرية والخططية فى إدارة المعارك، ثم قدرتهم على الحكم وإدارة شؤون البلاد حين قرروا التخلص من السلطان توران شاه بعد ذلك وتنصيب شجرة الدر زوجة سيدهم الملك الصالح ملكة على مصر ثم ظهورهم على الساحة كسلاطين وحكام لمصر ثم الشام.

لقد كانت لمعركة المنصورة الأثر الفعال فى ظهور المماليك كقوة عسكرية كبرى فى المنطقة.

كانت الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى هدفها بيت المقدس

والساحل الشامى، حيث أسسوا لدولة لاتينية هناك، لكن السبب المباشر الذى جعل الملك الفرنسى لويس الذى اشتهر بالقديس لويس التاسع قد حول الحملة إلى غزو مصر بعد أن استطاع السلطان الملك الصالح الأيوبى نجم الدين أن يحرر بيت المقدس من الصليبيين بعد أن سقطت المدينة المقدسة فى أيديهم فى عام ٦٤٨هـ - ١٢٢٤م نتيجة الصراعات بين الأسرة الأيوبية فى الشام وتحالف بعضهم مع الصليبيين.

وكان الملك الصالح على علاقة طيبة مع الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى الذى أعلمه بخبر قدوم الملك الفرنسى لويس التاسع لغزو الديار المصرية والقضاء على دولة الملك الصالح.

يقول ابن واصل والمقريزى إن أخبار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الإمبراطور فريدريك الثانى هو هنشتاوفن إمبراطور ألمانيا وصقلية، وأن رسوله تنكر فى زى تاجر قصد إلى حضرة السلطان الصالح أيوب فوجده مريضاً بدمشق(١).

ولقد كان لهزيمة الصليبيين قرب غزة(٢) على أيدى الملك الصالح

---

(١) انظر مفرج الكروب «لابن واصل»، السلوك - «للمقريزى» ج١.

(٢) كانت معركة قرب مدينة غزة فى أكتوبر ١٢٤٤م حيث شن الصليبيون وأعوانهم من ملوك أيوبيين من الشام ضد جيش الملك الصالح وعناصر الخوارزمية التى استعان بهم، وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وحلفائهم من الأيوبيين وقد استطاع الملك الصالح بعد هذه المعركة فرض سيطرته على الشام وتحرير القدس. وكان قائد جيش الملك الصالح الأمير ركن الدين بيبرس وهو غير الظاهر بيبرس البندقدارى، وفى هذا يقول المؤرخ ابن تغرى:وبيبرس هذا هو غير بيبرس البندقدارى الظاهرى وإنما هذا أيضاً اسمه وشهرته وهو أكبر من الظاهر بيبرس وقد قام بإعدامه.

وهو أيضا ما ذكره المقريزى فيما يتعلق بقبض الصالح أيوب على بيبرس بعد أن انضم للخوارزمية بقوله: «فمازال يخدعه ويمنيه، حتى فارق الخوارزمية، وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به». - (المقريزى، ١/٤٢٨). وهو كذلك ما ذكره أبو الفداء إسماعيل بن كثير فى تاريخه بقوله: «فى هذه السنة حبس الصالح أيوب مملوكه =

وجيشه الأثر فى خروج تلك الحملة، فقد وصلت أنباء المعركة أوروبا فيها

= بيبرس وهو الذى كان معه لما اعتقل فى الكرك وسببه أن بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله فى هذه السنة وكان آخر العهد به». ـ (أبو الفداء، ٦٤٤هـ) كان لسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين صدى قوى فى أوروبا يشبه صدى سقوطها فى يد صلاح الدين الأيوبى فى سنة ١١٨٧م، مما جعل الأوروبيين يدعون إلى قيام حملة صليبية كبيرة تمكنهم من استعادة بيت المقدس، وكان ملك فرنسا لويس التاسع من أكبر المتحمسين للحملة الجديدة. كان الصليبيون يُدركون أن مصر صارت تمثل قلعة الإسلام وترسانته العسكرية ومصدر القوة البشرية الرئيسى للمسلمين، وهى العائق الرئيسى الذى يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس، وأنهم لن يتمكنوا من احتلال كل من الشام وبيت المقدس دون الإجهاز على مصر.

وفى نوفمبر من عام ١٢٤٤، مباشرة بعد هزيمة الصليبيين عند غزة، قام «روبرت» بطريرك بيت المقدس بإرسال «جاليران» أسقف بيروت إلى ملوك وأمراء أوروبا يطالبهم بإرسال إمدادات عاجلة إلى الأراضى المقدسة لمنع سقوط مملكة بيت المقدس بالكامل فى أيدى المسلمين. وفى عام ١٢٤٥، أثناء انعقاد مجمع ليون الكنسى الأول، وبحضور روبرت.. بطريرك بيت المقدس، منح بابا الكاثوليك إينوسينت الرابع تأييده الكامل للحملة الصليبية السابعة التى تحمس لها لويس التاسع ملك فرنسا وكان يحضر لها، وقام بابا الكاثوليك على إثر ذلك بإرسال «أودو» كاردينال فراسكاتى للترويج للحملة فى كافة أنحاء فرنسا، وفُرضت ضرائب على الناس لتمويلها، ووافقت جنوة ومارسيليا على الاضطلاع بتجهيز السفن اللازمة، أما البندقية فقد فضلت عدم المشاركة بسبب علاقتها التجارية الواسعة مع مصر.

كان من أهداف الحملة الصليبية السابعة، هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، والقضاء على الدولة الأيوبية التى كانت تحكم مصر والشام، وإعادة احتلال بيت المقدس. لتحقيق ذلك، جهز الصليبيون الحملة بتأن فى ثلاث سنوات، وحاولوا إقناع المغول بالتحالف معهم ضد المسلمين حتى يتمكنوا من تطويق العالم الإسلامى من المشرق والمغرب مما يصعب على مصر القتال على جبهتين فى آن واحد فيسهل عليهم الإطاحة بالعالم الإسلامى بضربة واحدة. قام البابا بإرسال مبعوثه الفرنسيسكانى «جيوفانى دا بيان كاربينى» إلى «جويوك» خان المغول يطلب منه تحالفه مع الصليبيين. إلا أن رد «جويوك» جاء مخيباً لآمال البابا، إذ رد عليه برسالة تطلب منه الخضوع للمغول والحضور إليه مع كل ملوك أوروبا لمبايعته ملكاً على العالم. لكن إينوسنت لم يفقد الأمل فقام فى مايو من عام ١٢٤٧ بإيفاد «أشلين» إلى القائد المغولى «بايتشو» فى تبريز. وبدا اللومبادرى «بايتشو» أكثر استعداداً للتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين، إذ اقترح أن يقوم بمهاجمة بغداد على أن يقوم الصليبيون فى ذات الوقت =

كثير من المبالغة المعهودة، فكان لابد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية فى قلب لويس التاسع الذى أحزنه عودة القدس إلى المسلمين فأراد استردادها من طريق جديد هو غزو الديار المصرية ثم فلسطين.

غير أن تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموماً فى أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوروبيين، بل فرنسية أغلبها من الفرنسيين، لانصراف ألمانيا وإيطاليا وقت ذاك إلى النزاع الإمبراطورى البابوى، وفشل لويس التاسع فى إزالة الخلاف بين البابا إينوسينت الرابع والإمبراطور فريدريك الثانى.

ففى مجمع ليون الدينى وهو المجمع الذى عقد سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) للنظر فيما وصل إلى البابوية من أخبار الشرق، وأعلنت فيه الحملة بقيادة لويس التاسع دعا البابا إلى حملة سماها صليبية ضد فريدريك الثانى باعتباره خارجاً على الكنيسة مقطوعا من رحمتها، فقد كان لرجال الدين سطوتهم فى تلك الأزمنة، وبالتالى فإن قرار البابا يعنى سقوط حكم فريدريك.

وكانت الفكرة السائدة فى أوروبا المسيحية منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى أنه ما دامت مصر باقية على ما هى عليه من القوة والبأس، فإن مشاريع الصليبيين فى الشام فاشلة لا محالة، ولابد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة.

وصاحب تلك النظرية هو «عمورى الأول» صاحب الحملات المشهورة التى مهدت للدولة الأيوبية فى مصر، واتخذها حنا بريين Jean de Brienne

---

= بمهاجمة الشام فيتم تطويق المسلمين، وأوفد رسولين إلى روما بقيا فى ضيافة بابا الكاثوليك نحو عام، ثم عادا إلى بايتشو ومعهما شكوى من البابا بأنه لم يلحظ أن «بايتشو» قد أقدم على فعل شيء مثمر يخدم التحالف المأمول.

إذ جاء فى رسالة جويوك خان المغول للبابا إينوسينت الرابع وهى محفوظة فى أرشيف الفاتيكان السرى مضمونها طلب خان المغول من البابا وملوك أوروبا الخضوع له.

ملك بيت المقدس محوراً لسياسته وحملته الفاشلة التى داهمت الشواطئ المصرية سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) زمن السلطان الكامل، كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته وأحلامه الصليبية[1].

أبحر الأسطول الفرنسى من ميناء مرسيليا فى خريف سنة ١٢٤٨م إلى جزيرة قبرص فأقام الملك لويس التاسع فصل الشتاء هناك وأجرى إتصالات مع المغول لمساعدته ولكنها فشلت ثم أبحر من قبرص فى مايو ١٢٤٩م متجهاً نحو دمياط وقد انضم إليه أخوه شارل دى أنجو، وروبرت دى أرتو.

أما فى مصر فقد كانت أنباء عزم الفرنج على مهاجمة مصر قد وردت، فأنهى السلطان الصالح أيوب حصاره لحمص وعاد من الشام إلى مصر على محفة بسبب مرضه الشديد، ونزل فى شهر محرم من سنة ٦٤٧هـ، الموافق أبريل عام ١٢٤٩م عند قرية أشموم طناح، على البر الشرقى من الفرع الرئيسى للنيل. وأصدر أوامره بالاستعداد وشحن دمياط بالأسلحة، والأقوات والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبى على بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، وكان أميراً فى نحو الثمانين، على رأس جيش كبير ليعسكر فى البر الغربى لدمياط حتى يواجه الفرنج إذا قدموا.

طلب البارونات والمستشارون من الملك لويس التمهل حتى وصول السفن الجانحة بالشام، ولكنه رفض طلبهم بحجة أن فعل ذلك سيعطى دفعة للمسلمين، كما أنه لا يوجد مرفأ فى الطريق يمكن أن ترسو فيه السفن مما قد يعرضها للجنوح إلى مناطق بعيدة بفعل الرياح القوية.

دخلت سفن الفرنج المياه المصرية ووصلت إلى شاطئ دمياط وأرست

---

(١) انظر مفرج الكروب ـ مصدر سابق، والسلوك للمقريزى، فقد قال ابن واصل: إن ملك فرنسا حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج، وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية.

بإزاء المسلمين.

راع المقاتلون الصليبيون وهم ينظرون من فوق سفنهم كثرة جنود المسلمين على الشاطئ. وبريق أسلحتهم، وصهيل خيولهم. وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه الاستسلام. جاء فى كتاب لويس التاسع للسلطان الصالح أيوب: «أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وأنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمِّل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه من الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان ودخلت إلى القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشموع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتلك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى، فهى هدية حصلت عليها فى يدى، وإن كانت البلاد لك والغلبة على، فيدك العليا ممتدة إلى. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا»[1].

جاء فى رد الملك الصالح على رسالة لويس التاسع: «أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك ـ أيها المغرور ـ حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك. فهناك تسىء بك الظنون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. فإذا

---

(١) انظر السلوك للمقريزى. وكان تعداد جيش لويس التاسع قرابة الخمسين ألف محارب.

قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، وكن على آخر سورة ص: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨).

ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩). وإلى قول الحكماء: «إن الباغى له مصرع» وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام»[١].

وكان السلطان الصالح مريضاً مرض الموت وكانت الدولة الأيوبية تحتضر معه. اغرورقت عينا الصالح أيوب بعد أن قُرئ عليه كتاب لويس ورد عليه يحذره من مغبة عدوانه وصلفه، وينبئه بأن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه.

ولما وصل رد الملك الصالح إلى لويس برفض الاستسلام، قرر لويس بدء عملية الانزال، فى فجر السبت ٢٢ صفر سنة ٦٤٧هـ، الموافق فى ٥ يونيو ١٢٤٩م، وهكذا نزلت القوات الصليبية على بر دمياط. وكانت القوات تضم نحو ٥٠ ألف مقاتل وفارس.

ضُربت للويس خيمة حمراء كبيرة على الشط، ونشب قتال عنيف بين المسلمين والصليبيين انتهى بتراجع المسلمين.

وفى المساء انسحب الأمير فخر الدين يوسف إلى معسكر السلطان فى «أشموم طناح»، بعد أن ظن أن السلطان قد فارق الحياة لأنه لم يرد على رسائله التى بعث بها إليه بالحمام الزاجل.

ترك فخر الدين دمياط خلفه بكل ما فيها من سلاح ومؤونة وأقوات، ففزع السكان وفروا هم أيضاً منها، وخلفهم العربان الذين كانوا قد وضعوا فى المدينة للمشاركة فى حمايتها.

---

(١) انظر المصدر السابق.

فعبر الجنود الصليبيون إلى المدينة المهجورة، سيراً على الجسر الذى نست الحامية الأيوبية تدميره قبل انسحابها، واحتلوا دمياط بدون أن يواجهوا أى مقاومة، حتى إنهم قد ظنوا فى بادئ الأمر أنها مكيدة من المسلمين. استولى الصليبيون على المدينة بكل ما فيها من سلاح وعتاد ومؤونة، وحصنوا أسوارها.

فرح الفرنج بالاستيلاء على دمياط بتلك السهولة، لكن لويس فضَّل التمهل فى التقدم نحو الدلتا إلى أن تصل السفن الجانحة فى الشام وإلى أن ينتهى موسم فيضان النيل حتى لا يسقط فى غلطة الحملة الصليبية الخامسة التى أغرقها فيضان النيل.

تحولت دمياط إلى مستعمرة صليبية، وعاصمة لمملكة ما وراء البحار وصار جامعها الكبير كاتدرائية، ونصب أحد القساوسة أسقفاً عليها، وأنشئت الأسواق الأوروبية وأمسك تجار جنوة وبيزا بزمام التجارة فيها. واستقبل لويس صديقه بالدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية، وحضرت زوجته من عكا للإقامة معه، وقد كانت قد توجهت من قبرص إلى عكا عند إبحاره إلى مصر.

أما فى الجانب المصرى فقد وقعت أنباء سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين كالصاعقة على الناس، وانزعج واشتد عنف السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين وقال له: «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج؟».

وأمر بإعدام نحو خمسين من أمراء العربان الذين تهاونوا وغادروا دمياط بغير إذن. وحُمل السلطان المريض فى حراقة - سفينة حربية - إلى قصر المنصورة، وقدمت الشوانى بالمحاربين والسلاح، وأعلن النفير العام فى البلاد فهرول عوام الناس أفواجاً من كافة أنحاء مصر إلى المنصورة لأجل الجهاد ضد الغزاة.

وقامت حرب عصابات ضد الجيش الصليبى المتحصن خلف الأسوار والخنادق، وراح المجاهدون يشنون هجمات على معسكراته ويأسرون مقاتليه وينقلونهم إلى القاهرة.

ويروى المؤرخ الصليبى «جوانفيل» الذى رافق الحملة، أن المسلمين كانوا يتسللون أثناء الليل إلى المعسكر الصليبى ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون برؤوسهم. ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدوادارى أن الصليبيين كانوا يخافون من العوام المتطوعين أكثر من الجنود. فى غضون ذلك، فى ٢٤ أكتوبر، وصل إلى دمياط من فرنسا «ألفونس دى بواتى» Alphonse de Poitiers الشقيق الثالث للملك لويس ومعه إمدادات وقوات إضافية.

ومع وصول الإمدادات تشجع الصليبيون وقرروا التحرك من دمياط وكان على لويس الاختيار بين السير إلى الاسكندرية كما اقترح «بيتر أوف بريتنى» والبارونات، أو السير إلى القاهرة كما أصر «روبرت دو ارتوا» شقيق لويس الذى أشار إلى أنه: «إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها»، واختار لويس ضرب رأس الأفعى فأمر بالسير إلى القاهرة.

وبالفعل عقد الصليبيون العزم على التوجه إلى القاهرة مروراً بمدن الوجه البحرى ومنها مدينة المنصورة.

وفى ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م، بعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط، خرج الصليبيون من دمياط وساروا على البر، بينما شوانيهم فى بحر النيل توازيهم، وقاتلوا المسلمين هنا وهناك حتى وصلوا فى ٢١ ديسمبر إلى ضفة بحر أشموم، الذى يُعرف اليوم بالبحر الصغير، فأصبحت مياه بحر أشموم هى الحاجز الذى يفصل بينهم وبين معسكر المسلمين على الضفة الأخرى.

حصَّن الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا خنادقهم، ونصبوا المجانيق

ليرموا بها على عسكر المسلمين، ووقفت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة، ووقع قتال شديد بين الصليبيين والمسلمين فى البر ومياه النيل.

حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى الجانب الآخر ولكن المسلمين ظلوا يمطرونهم بالقذائف ويجرفون الأرض فى جانبهم كلما شرعوا فى إكمال الجسر حتى تخلوا عن الفكرة.

وراحت المساجد تحض الناس على الجهاد ضد الغزاة مرددة الآية القرآنية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فصار الناس يهرعون للجهاد من أنحاء مصر على منطقة الحرب بأعداد كبيرة وحماس جهادى منقطع النظير وهكذا يكون أهل الإسلام فى الدفاع عن عقيدتهم وبلدانهم.

وبينما كان الصليبيون يتقدمون جنوباً داخل الأراضى المصرية اشتد المرض على السلطان الصالح أيوب وفارق الحياة بالمنصورة فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ، الموافق فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته، وأدارت البلاد بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتابك العسكر والطواشى جمال الدين محسن رئيس القصر، حتى لا يعلم الصليبيون فيزيد عزمهم ويشتد بأسهم، وحتى لا تتأثر معنويات الجيش.

وأرسل الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار زعيم المماليك البحرية إلى حصن كيفا لإحضار توران شاه ابن السلطان المتوفى ليتسلم السلطنة وقيادة البلاد فى حربها ضد الغزاة.

إلا أن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجع الصليبيون أكثر وظنوا أن التحالف القيادى القائم بين

شجرة الدر وهى امرأة والأمير فخر الدين وهو رجل طاعن فى السن لن يصمد طويلاً أمام الجيوش الصليبية.

ولأن الخونة موجودون فى كل زمان ومكان فقد دل أحد الجواسيس فى ٨ فبراير من عام ١٢٥٠م الصليبيين على مخائض فى بحر أشموم مكنت فرقة يقودها أخو المالك «روبرت دى أرتوا» سوياً مع فرسان المعبد، وفرقة إنجليزية يقودها: «William of Salisbury» «وليم أوف ساليزبرى» من المعبد بخيولهم إلى الضفة الأخرى ليفاجأ المسلمون بهجوم صليبى كاسح على معسكرهم فى «جديلة» على نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة المنصورة.

فى هذا الهجوم المباغت قتل فخر الدين يوسف وهو خارج من الحمام مدهوشاً بعدما سمع جلبة وصياحاً فى المعسكر وأدى الهجوم إلى تشتت الأجناد وتقهقرهم مذعورين إلى المنصورة.

وبعد أن احتل الصليبيون معسكر جديلة تقدموا خلف «روبرت دو ارتوا» نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصرى برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لا ريب منتصرون.

ويذكر المعاضيدى أنها مخاضة سلمون التى تقع فى بلدة سلمون وقد دلهم عليها بعض أهل تلك البلدة من غير المسلمين. وقد ذكر المقريزى فى كتابه السلوك أن الذى دل الصليبيين على المخائض كان من «بعض منافقى أهل الإسلام» الذى رافق الحملة.

ويذكر المؤرخ الصليبى جوانفيل وشاهد الأحداث وكان مقربا من الملك لويس، أن الذى دل الصليبيين على المخاضة كان من البدو، وقد فعل ذلك مقابل المال.

بعد مقتل الأمير فخر الدين تولى قيادة الجيش الأمير فارس الدين أقطاى ومساعده الأمير بيبرس الذى وضع خطة عسكرية لصد هجوم

العدو، وكان هذا أول ظهور للمماليك كقادة عسكريين داخل مصر وتمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها.

ووافقت شجرة الدر على خطة بيبرس البندقدارى باستدراج القوات الصليبية المهاجمة داخل مدينة المنصورة، فأمر بيبرس بفتح باب من أبواب المنصورة وبتأهب المسلمين من الجنود والعوام داخل المدينة مع الالتزام بالسكون التام.

وبلعت القوات الصليبية الطعم، فظن فرسانها أن المدينة قد خوت من الجنود والسكان كما حدث من قبل فى دمياط، فاندفعوا إلى داخل المدينة بهدف الوصول إلى قصر السلطان، فخرج عليهم بغتة المماليك البحرية وهم يصيحون كالرعد القاصف وأخذوهم بالسيوف من كل جانب ومعهم العربان والعوام والفلاحون يرمونهم بالرماح والمقاليع والحجارة، وقد وضع العوام على رؤوسهم طاسات نحاس بيض عوضاً عن خوذ الأجناد وسد المسلمون طرق العودة بالخشب والمتاريس فصعب على الصليبيين الفرار، وأدركوا أنهم قد سقطوا فى كمين محكم داخل أزقة المدينة الضيقة وأنهم متورطون فى معركة حياة أو موت، فألقى بعضهم بأنفسهم فى النيل وابتلعتهم المياه، وهكذا صارت المدينة مقبرة للصليبيين حيث قُتل عدد كبير من القوات الصليبية المهاجمة.

ولم ينج من فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية سوى ثلاثة مقاتلين، وفنيت الفرقة الإنحليزية تقريباً عن آخرها، واضطر أخو الملك لويس «روبرت دو ارتوا» إلى الاختباء فى أحد الدور، ثم قتل هو و«وليم أوف ساليزبرى» قائد الفرقة الإنجليزية.

أثناء المعركة راح الفرنج على الضفة المقابلة لبحر أشموم يكدون ويجدون لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور لمساعدة فرسانهم، ولكن لما وردتهم أنباء سحق الفرسان، عن طريق «بيتر أوف بريتنى» الذى فر إليهم بوجه

مشجوج من ضربة سيف، وشاهدوا بقايا فرسانهم مدبرين إلى جهتهم والمسلمين فى أعقابهم، راحوا يلقون بأنفسهم فى مياه النيل بغية العودة إلى معسكراتهم وكاد لويس ذاته يسقط فى الماء.

يصف المؤرخ «جوانفيل» الذى حضر الواقعة: «فى تلك المعركة أعداد كبيرة من الناس من ذوى الهيئات المحترمة ولوا مدبرين فوق الجسر الصغير فى مشهد مخز لأبعد الحدود. لقد كانوا يهرولون وهم فى حالة من الذعر الشديد، وبدرجة جعلتنا لا نتمكن من إيقافهم على الإطلاق. أستطيع ذكر أسمائهم ولكنى لن أفعل لأنهم صاروا فى عداد الأموات».

وبذلك أصبح الصليبيون فى ذات الموقع الذى باتوا فيه الليلة السابقة على الضفة الشمالية من بحر أشموم حيث أداروا عليهم سوراً وبقوا تحت هجوم مستمر طوال اليوم.

وقد اتهم بعض الفرسان لويس بالجبن والتخاذل.

بعد المعركة عقد فارس الدين أقطاى، القائد العام للجيوش المصرية، مجلس حرب لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على شارة تحمل علامة البيت الملكى الفرنسى، كان صاحب الشارة شقيق الملك لويس، «روبرت دو ارتوا» الذى لقى مصرعه فى المعركة. ولكن أقطاى ظن أنها خاصة بلويس وأن العثور عليها دليل على أنه قد قُتل، فقال: «كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد».

فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفورى على معسكر الصليبيين، فقام المسلمون فى الفجر بشن هجوم واسع صمد فيه الفرنج ولكنه ألحق بهم خسائر فادحة.

فى هذا الهجوم فقد مقدم فرسان المعبد «وليم أوف سوناك» William of Sonnac إحدى عينيه، ثم فقد الأخرى بعد بضعة أيام ومات.

انطلق الحمام الزاجل من المنصورة بنبأ الانتصار على الصليبيين إلى القاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل وفرح الناس وأقيمت الزينات.

تحصن الصليبيون داخل معسكرهم ثمانية أسابيع آملين فى انهيار القيادة فى مصر حتى يتمكنوا من معاودة محاولة التقدم إلى القاهرة.

لكن الحلم الصليبى لم يتحقق، وبدلاً من انهيار القيادة وصل السلطان الأيوبى الجديد توران شاه إلى المنصورة فى ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٤٨هـ، الموافق ٢٨ فبراير عام ١٢٥٠، لقيادة الجيش، بوصول السلطان الجديد تنفست شجرة الدر والأمراء الصعداء وأعلن رسمياً فى البلاد عن نبأ وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب وتولى ابنه توران شاه مكانه.

قام المسلمون بنقل المراكب وهى مفككة على ظهور الإبل وبعد تركيبها على الشط أنزلوها فى مياه النيل خلف قوات لويس التاسع، وهى حيلة لجأ إليها الملك الكامل جد توران شاه فى نفس المكان أثناء الحملة الصليبية الخامسة، وبذلك منعوا وصول الإمدادات والمؤن من البحر المتوسط ودمياط إلى القوات الصليبية التى صارت محاصرة وفى موقف لا تحسد عليه، فلا هى قادرة على الاقتحام جنوباً والتقدم نحو القاهرة ولا هى ممونة من قاعدتها فى الشمال.

استخدم المسلمون سلاح النار الإغريقية فى تدمير مراكب الإمدادات الصليبية المتجهة من دمياط إلى قوات لويس المتمركزة جنوب المنصورة، كما تمكنوا من الاستيلاء على ثمانين سفينة صليبية، وفى يوم ١٦ مارس تمكنوا من تدمير قافلة كانت تتكون من اثنتين وثلاثين سفينة.

لم يمض وقت طويل حتى كانت قوات لويس قد أنهكت من الحصار والهجمات المتواصلة فى النهار والليل، وبدأ الجنود الصليبيون يعانون من الجوع والمرض ويفرون إلى جيش المسلمين، بعد أن أصابهم اليأس

والإحباط، بل والشك فى الفكرة الدينية التى حملتهم على الانضمام إلى حملة لويس التاسع ضد بلاد المسلمين.

وعلى الرغم من هزيمة لويس التاسع وانتهاء حلمه لبلوغ القاهرة بانحساره فى مصيدة جنوب المنصورة، بقوات جائعة ومريضة وخائفة، إلا أنه عرض على المسلمين أن يسلمهم دمياط فى مقابل تسليمه بيت المقدس وأجزاء من ساحل الشام، وهو عرض كان قد اقترحه السلطان الأيوبى الصالح أيوب على لويس بعد احتلاله دمياط.

ورفض المسلمون عرض لويس لإدراكهم أن وضعه العسكرى لم يعد يؤهله لوضع شروط أو عقد صفقات.

وبذلك أصبح أمام لويس التاسع اختيار واحد وهو الفرار إلى دمياط وإنقاذ نفسه وجنوده.

فى ٥ أبريل من سنة ١٢٥٠، فى جنح ظلام الليل، بدأت قوات الصليبيين رحلة الهروب إلى دمياط. ومن شدة الخوف والارتباك، نسى الصليبيون أن يدمروا جسراً من الصنوبر كانوا قد أقاموه فوق قناة أشموم.

وعندما أحس المسلمون بحركة الصليبيين، عبروا فوق الجسر وراحوا يطاردونهم ويحصدونهم السيوف من كل جانب حتى وصلوا إلى فارسكور، حيث تم تدميرهم بالكامل ووقع الملك لويس وأمراؤه ونبلاؤه فى الأسر، حيث حبس بدار ابن لقمان فى يوم ٦ أبريل من نفس العام.

فى تلك الغضون كان الصليبيون يروجون شائعة فى أوروبا تزعم أن الملك لويس التاسع هزم سلطان مصر فى معركة عظمى تبعها سقوط القاهرة فى يده.

ثم وصلت أنباء هزيمة لويس التاسع ووقوعه فى الأسر فذهل الناس فى فرنسا، ونشأت حركة هستيرية عرفت باسم «حملة الرعاة الصليبية»،

وقد أطلق عليها الحملة الشعبية، قامت فى فرنسا بتشجيع من «بلانش دى كاستيل» ـ أم لويس التاسع ـ بعد هزيمة الحملة الصليبية السابعة وأسر لويس التاسع فى مصر.

قاد الحركة، التى بدأت قرب عيد الفصح سنة ١٢٥١، رجل غامض سمى نفسه «سيد المهجر»، زعم أن السيدة مريم ظهرت له وطلبت منه قيادة حملة صليبية إلى مصر لإنقاذ لويس التاسع.

انضم للحركة آلاف من الفلاحين والرعاة وهوجمت الكنائس والأديرة والجامعات فى باريس ومدن أخرى، وقتل قساوسة ورهبان وألقى بهم فى نهر السين بحجة عدم مساعدتهم للويس الأسير.

وهوجم اليهود والمعابد اليهودية أيضاً .

وبعد إدراك أم لويس لخطورة الموقف طالبت بالتصدى لأفراد الحملة والقبض عليهم، انتهت الحملة بمصرع «سيد المهجر» وأعداد كبيرة من أفراد الحملة وفرت أعداد إلى انجلترا.

ويعتقد المؤرخ «ماثيو باريس» أن «سيد المهجر» كان البحار المحتال «وليم الخنزير» الذى عرض نقل حملة الأطفال الصليبية إلى مصر من قبل، أو على الأقل كان من ضمن المحتالين الذين شاركوا فيها.

النتائج المباشرة لهزيمة لويس التاسع وفشل حملته الصليبية

لقد تحققت نبوءة الصالح أيوب بأن بغى لويس التاسع سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه. فقد قُتل فى حملة لويس التاسع ما بين ١٠ آلاف و٣٠ ألف من الجنود الصليبيين، إضافة لأسر لويس التاسع فى «منية عبد الله»، المعروفة بميت الخولى عبد الله الآن، بعد أن استسلم مع نبلائه للطواشى جمال الدين محسن الصالحى، وأودع مغللاً فى بيت القاضى إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، تحت حراسة طواشى يدعى صبيح المعظمى.

كما أسر أخواه «شارل دانجو» و«ألفونس دو بويتى» وعدد كبير من أمرائه ونبلائه وقد سجن معظمهم معه فى دار ابن لقمان.

أما الجنود العاديون الذين أسروا فقد أقيم لهم معتقل خاص خارج المدينة، وأرسلت غفارة لويس التاسع إلى سوريا مع كتاب توران شاه ببشارة النصر، وكتب فى ذلك أحد الشعراء

ويلبس أسلاب الملوك عبيده   فلازال مولانا يبيح حمى العدى

وقد سُمح للويس التاسع بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط للمصريين، والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، بالإضافة إلى دفع فدية قدرها ٤٠٠ ألف دينار تعويضاً عن الأضرار التى ألحقها بمصر، فدفع نصف المبلغ بعد أن جمعته زوجته فى دمياط، ووعد بدفع الباقى بعد وصوله إلى عكا، وهو ما لم يفعله بعد أن تهرب من الدفع فيما بعد.

وفى ٣ صفر ٦٤٨هـ، الموافق ٨ مايو عام ١٢٥٠، بعد احتلال دام أحد عشر شهراً وتسعة أيام، سلم لويس التاسع دمياط وغادرها إلى عكا مع أخويه و١٢,٠٠٠ أسير كان من ضمنهم أسرى من معارك سابقة. أما زوجته «مرجريت دو بروفنس» والتى كانت فى غضون ذلك قد أنجبت طفلا فى دمياط أسمته «جان ترستان» أى (جان الحزن) فقد غادرت دمياط مع وليدها قبل مغادرة زوجها ببضعة أيام.

وكانت مرجريت تعانى من كوابيس مرعبة أثناء نومها، وتتخيل أن غرفتها تغتص بالمسلمين، فكانت دائماً تصرخ فى الليل: «أغيثونى.. أغيثونى».

أما «جان ترستان» فقد مات مع لويس التاسع سنة ١٢٧٠م أثناء الحملة الصليبية على تونس، وهى الحملة التى كان من أهدافها تحويل تونس إلى قاعدة صليبية ينطلق منها لويس التاسع لمهاجمة مصر مرة أخرى. مع أن قَسمه بعدم العودة إلى مصر كان أحد شروط إطلاق سراحه، وهكذا فلم

يتعلم لويس الدرس فمات غبياً.

وكتب الشاعر المعاصر ابن مطروح[١] أبيات تسخر من نهاية حملة لويس التاسع:

أتيت مصر تبغي ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق بك عن ناظرك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

ولم يعد لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر البقاء فى مدينة عكا بعد أن سمح لقواته ومعظم نبلائه بالسفر إلى فرنسا، وحمَّلهم رسائل إلى ملوك أوروبا يطلب فيها النجدة والمدد عله يتمكن من إحراز نصر فى الشام يمسح به وصمة الفشل والهزيمة التى لحقت به فى مصر.

لكنه اضطر للعودة إلى فرنسا بعد أربع سنوات بعد أن توفيت والدته «الملكة بلانش» التى كانت تدير شؤون البلاد فى فرنسا وقت غيابه. وعلى الرغم من الهزيمة الساحقة التى مُنِىَ لويس وجيشه والأعداد الغفيرة من قتلاه وجرحاه وأسراه، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول إلى «رأس الأفعى» فى القاهرة، بل لم يتمكن من الاستيلاء على المنصورة وفرّ فى النهاية بقواته ووقع فى الأسر وقيد بالسلاسل مع باروناته، ووُضع فى السجن تحت حراسة خاصة وليس أميراً كما كانت التقاليد، وكاد يُقتل لولا موافقة شجرة الدر والمماليك على إطلاق سراحه مقابل دفع فدية، إلا أن

(١) انظر ديوان ابن مطروح والأبيات للشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح وهو معاصر للأحداث.

بعض المؤرخين الغربيين أشاروا إلى أن لويس انتصر فى معركة المنصورة، معتبرين الهجوم الخاطف على معسكر المسلمين فى جديلة وصمود لويس عند الجسر أثناء فرار فرسانه انتصاراً وأن هذا الصمود هو معركة المنصورة وهذا الكلام هو السفه بعينه. ومن الترهات التى قالوها أيضاً وهى من الأمور المضحكة أن استسلامه فى فارسكور كان نتيجة لخيانة جندى صليبى رشاه المسلمون كى يصيح فى الجنود على لسان لويس بإلقاء السلاح والاستسلام، وأضافوا أن المسلمين طلبوا منه بعد القبض عليه أن يوافق على تنصيبه سلطاناً على مصر ولكنه رفض فى عزة وكبرياء، متحججاً بأنه فى حالة تنصيبه سلطاناً سيضطر إلى تخيير رعيته المسلمة بين اعتناق المسيحية أو القتل.

ويعبر وصف المؤرخ الصليبى «ماثيو باريس»، المتوفى عام ١٢٥٨، الذى سجله فى كتابه بعد أحداث المنصورة، عن مدى الألم الذى شعر به الصليبيون بعد هزيمتهم: «كل الجيش المسيحى تمزق إرباً فى مصر، وأسفاه، كان يتكون من نبلاء فرنسا، وفرسان الداوية والاسبتارية وتيوتون القديسة مارى وفرسان القديس لازاروس».

وهذه المعارك كانت البداية الحقيقية لظهور قوة المماليك العسكرية ويشارك فيها بالطبع قطز بوصفه أحد أمراء المماليك.

▪ ▪ ▪



الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ



الدولة الأيوبية فى أقصى اتساع لها سنة ٥٨٩هـ

الخريطة السياسية والعسكرية للمنطقة العربية بعد هزيمة الصليبيين فى معركة المنصورة

بعد هزيمة الصليبيين فى سنة ١٢٥٠م توزعت الخريطة السياسية والعسكرية فى شرق حوض البحر المتوسط على أربع قوى سياسية: المماليك فى مصر، الأيوبيون فى الشام، الصليبيون فى عكا وساحل الشام، مملكة قليقية الأرمينية، وإمارة أنطاكية الصليبية.

بينما تحول المماليك فى مصر والأيوبيون فى الشام إلى عدوين لدودين، بينما تحالف صليبيو عكا وأرمن قليقية وصليبيو أنطاكية.

من مقر إقامته فى عكا حاول لويس مناورة مماليك مصر، مستغلاً الصراع الناشب بينهم وبين بقايا الدولة الأيوبية فى الشام. بمجرد وصول لويس إلى عكا وفد إليه مبعوث من الناصر يوسف ملك دمشق طالباً إقامة تحالف أيوبى- صليبى ضد مماليك مصر.

ولكن لويس رفض بسبب خوفه على مصير أسراه المحتجزين فى مصر، ولمعرفته أن مصر قوة لا يُستهان بها وفى ذاكرته هزيمته فى مصر وهزيمة التحالف الصليبى مع أيوبيى الشام فى سنة ١٢٤٤م والذى أدى إلى سقوط بيت المقدس بالكامل فى أيدى المسلمين.

ولكن بعدما أرسل الناصر يوسف رسالة إلى لويس توحى باستعداده لتسليمه القدس فى مقابل مساعدته ضد السلطان عز الدين أيبك فى مصر.

اهتم لويس بالأمر وأرسل إلى أيبك وفداً برئاسة «جون أوف فالنسينس» John of Valenciennes يحذره من أنه سيضطر إلى التحالف مع

دمشق ضده فى حالة عدم الإفراج عن الأسرى الصليبيين المحتجزين فى مصر.

وبالفعل وافق أيبك على الإفراج عن الأسرى والتنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس فى مقابل منع الناصر محمد من الاقتراب من حدود مصر.

وقد أدت هذه الأحداث فى نهاية الأمر إلى اقتراب أفول نجم الدولة الأيوبية فى الشام بعد كل إخفاقاتهم وصراعاتهم الداخلية، وفقدانهم كل مبررات بقائهم فى حكم المنطقة العربية الإسلامية، وظهور نجم دولة المماليك كقوة عسكرية مخلصة، تذود عن الإسلام وتجاهد الغزاة ولا تهادنهم ولا تتنازل لهم عن أراضى المسلمين ومقدساتهم، أى أن الدولة الجديدة للمماليك أصبحت تلعب الدور الذى لعبته دولة بنى أيوب فى عهد صلاح الدين الأيوبى(١).

فى تلك الغضون كانت الجيوش المغولية آخذة فى التوغل فى الجانب الشرقى من أوروبا والعالم الإسلامى، والصليبيون وحلفهم كانوا يأملون فى التحالف مع المغول ضد العالم الإسلامى.

وفى عام ١٢٤٧ خضعت مملكة قليقية بإرادتها للمغول وفى عام ١٢٥٤م، بعد أربع سنوات من فشل الحملة الصليبية السابعة، قام «هتوم» ملك أرمينية الصغرى بزيارة «قارقروم» عاصمة المغول وفى عام ١٢٥٣ أرسل لويس التاسع من عكا الكاهن الفرنسيسكانى «وليم أوف روبروك» William of Rubruck إلى عاصمة المغول للتشاور. وكان وليم هذا يصحب لويس فى مصر أثناء حملته عليها.

فقد كان من ضمن أهداف الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة

---

(١) اقرأ كتابنا «صلاح الدين المنقذ المنتظر» لمعرفة المزيد عن هذا البطل الذى لم يسر خلفاؤه على نهجه وكيف استطاع تحرير المسجد الأقصى وكيف تنازل عنه أخوه العادل بعد وفاة صلاح الدين رحمه الله.

لويس التاسع إنشاء حلف صليبى ـ مغولى ضد العالم الإسلامى لكن المغول التتار رفضوا ذلك وطلبوا من الصليبيين الخضوع لهم.

وفى عام ١٢٥٨ دمر المغول بغداد التى كانت مركزاً هاماً من مراكز العلم والثقافة فى العالم الإسلامى وأسقطوا الخلافة العباسية ثم احتلوا سوريا، وقبل أن يتوجهوا إلى مصر ذهب إليهم المماليك وهزموهم عند عين جالوت وأوقفوا زحفهم.

وقتل القائد كتبغا الذى اشترك فى تدمير بغداد، وقاد جيش المغول فى عين جالوت، وكان مسيحياً نسطورياً، وقد صحبه فى عين جالوت كل من أمير أنطاكية الصليبية، وملك أرمينيا الصغرى.

وكان الناصر يوسف فى آخر إخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظى، وسيراً على نهج المغيث عمر ملك الكرك الأيوبى، ولكنهم قتلوه بعد هزيمتهم. وقام مماليك مصر بتحرير الشام من المغول، وزالت دولة الأيوبيين تماماً، وأصبح المماليك، الذين تشكلت دولتهم فى رحم الأخطار، حكاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق وجنوب البحر المتوسط لعقود طويلة من الزمان.

وعلى الرغم من هزيمة الصليبيين والمغول، إلا أن الحروب أنهكت المسلمين اقتصادياً وبشريا، وأدى الاجتياح المغولى إلى اضمحلال العالم الإسلامى اضمحلالاً شديداً، ذلك أن المغول قتلوا أعداداً غفيرة من علماء المسلمين ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، حتى إن العرب قد فقدوا الكثير من حضارتهم التى فاقت كل وصف فى وقت كانت أوروبا تعيش عصور الظلام وتحكّم رجال الدين والملوك فى كل أمور الدنيا عندهم.

■ ■ ■

نهاية دولة الأيوبيين بمصر
بمقتل السلطان «توران شاه»

بعد فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر وتحقيق المماليك البحرية النصر المبين على الصليبيين وتولى الملك الجديد توران شاه ابن الملك الصالح الأيوبى، لم تستقر الأحوال السياسية فى مصر، بل ظهر الخلاف والاختلاف بين المماليك البحرية الذين أظهروا قوتهم وجلدهم فى قتال الفرنجة الغزاة وبين الملك الجديد ابن أستاذهم، والسبب هو كراهية توران شاه للمماليك البحرية.

فقد ذكر المؤرخون القدماء أن توران شاه لم يكن صالحاً للحكم لتهوره وكبريائه وشربه للخمر، ومعاملته السيئة لزوجة أبيه شجرة الدر واتهمها بإخفاء أموال أبيه وطالبها بالمال وهددها، وتنكر لأمراء المماليك وعلى رأسهم الأمير فارس الدين أقطاى والأمير بيبرس، فقد توجس خيفة من تزايد نفوذهم.

وقام توران شاه بتقريب مماليكه وحاشيته إليه الذين جاءوا معه من الشرق، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده. فكان إذا سكر بالليل جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية» ويسمى كل واحد منهم باسمه، ولذا نقموا عليه وأضمروا له السوء[1].

ثم وعد توران شاه الأتابك أقطاى بولاية الإسكندرية، ولكنه لم يف بالوعد، بل قيل إنه عزم على إرساله بشيراً بالنصر إلى بدر الدين لؤلؤ

(١) انظر السلوك للمقريزى ـ مصدر سابق، والنجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

صاحب الموصل، وأنه أراد بذلك أن يقبض عليه بدر الدين ويعتقله فى بعض القلاع، فتتكر أقطاى لتوران شاه، وصار يتربص به الدوائر، وقيل كذلك إن السلطان أراد أن يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر إلى ملوك البلاد المجاورة ليبعدهم عن القاهرة، ففطنت المماليك إلى حيلته، وعلموا أنه يريد التخلص منهم(١).

وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجرة الدر لأنها من حريم أستاذهم الذى اشتراهم، وبحكم الزمالة التى تربطها وإياهم «الخشداشية» وهى من أقوى الروابط التى كان لها أثر فى تطورات التاريخ المملوكى كما ذكرنا من قبل.

كل هذه الأمور جعلت المماليك يحنقون على السلطان توران شاه ويجمعون على قتله والتخلص منه قبل أن يبطش بهم.

وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الأمراء، منهم فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى.

وفى صباح يوم الاثنين ٢ مايو سنة ١٢٥٠م ـ ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ، وبعد فراغ توران شاه من طعام إفطاره فى خيمته بفارسكور، تقدم إليه بيبرس البندقدارى وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه، والتجأ توران شاه إلى البرج الخشبى الذى أقامه على النيل ليمضى فيه بعض وقته أثناء إقامته بفارسكور، واحتمى بأعلاه، وأغلق على نفسه الباب، فتبعه بيبرس وأقطاى وغيرهما من زعماء البحرية، وقالوا: «بعد جرح الحية لا ينبغى إلا قتلها».

وأحاطوا بالبرج، وأضرموا النار فيه، فنزل منه توران شاه وهو يصيح مستجدا: «خذوا ملككم ودعونى أعود إلى حصن كيفا»، فلم يغثه أحد، فأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى

---

(١) انظر مفرج الكروب ـ لابن واصل.

بنفسه فى الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاى فقتله(١)، فمات بالسيف والحرق والغرق.

وكان أبو عز الدين رسول الخليفة العباسى موجودا فى المعسكر فعارض فى مقتل السلطان، ويقال إن توران شاه أخذ يستغيث به من أعلى البرج ويقول: «يا أبا عز الدين أدركنى!» وتكرر ذلك، فركب أبو عز الدين فى أمره وكلمهم فيه، فقبض عليه المماليك البحرية وهددوه بالقتل إذا تدخل فى الأمر.

ثم انتشلت جثة السلطان من النيل، وتركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفنها فى مكانها.

يروى أبو شامة نقلا عن كلام والى القاهرة، أنه بعد مقتل السلطان توران شاه رمى فى جرف على حافة البحر (النيل)، وردم عليه التراب، فبقى هناك ثلاثة أيام، ثم كشفه الماء فنقل من ثَمَّ إلى الجانب الآخر من النيل، وكانت طريقة نقله عجيبة حقاً إذ أنه جر فى الماء بصنارة، وكان الجار له راكباً فى مركب والصنارة بيده كأنه حوت إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر فدفنه هناك(٢).

وبمقتل توران شاه ينتهى عصر الدولة الأيوبية فى مصر فعلياً، وتبقى الثمانون يوماً التى حكمت فيها شجرة الدر مصر أياماً فاصلة بين نهاية دولة الأيوبيين وبداية دولة المماليك.

■ ■ ■

---

(١) انظر الذيل على الروضتين ـ أبو شامة، ومفرج الكروب ـ مصدر سابق.

(٢) انظر الذيل على الروضتين ـ مصدر سابق.

شجرة الدر على كرسى السلطنة
ثمانون يوماً

وبعد قيام المماليك البحرية بقتل سلطانهم أصبح هناك فراغ فى الحكم حيث لا يوجد بديل من أسرة بنى أيوب لحكم مصر، فملوك الأيوبيين بالشام مثل الملك الناصر يوسف ملك حلب وغيره لا يمكن له الوثوق بالمماليك البحرية بعد أن قاموا باغتيال ابن سيدهم وسلطانهم بكل سهولة.

ومن هنا كان اختيار المماليك لزوجة سيدهم وتنصيبها ملكة على الديار المصرية، إنها شجر الدر أو شجرة الدر أم خليل، ولهذا اعتبر المؤرخون شجرة الدر من السلاطين الأيوبيين وهى آخرهم.

وأخذت البيعة للسلطانة الجديدة فى مايو عام ١٢٥٠م ١٠ صفر عام ٦٤٨هـ ولم تدم أيام ملكها سوى ثمانين يوماً، وحرصت شجر الدر على أن تكتب فى المراسيم اسم والدة خليل وهو ابنها الذى مات فى حياة أبيه الملك الصالح.

وجعلت صيغة الدعاء لها على المنابر: «احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين أم خليل، المستعصمية، صاحبة الملك الصالح»(١).

ولعل ذكر المستعصمية كان إشارة منها إلى الخليفة العباسى وقتها المستعصم وليس كما ذكر المؤرخ الإنجليزى «لين بول» أنها كانت جارية للخليفة العباسى قبل أن تلحق بالملك الصالح وذكر اسم الخليفة فى الدعاء

(١) ذكر المؤرخون أن شجر الدر لم تكن أول امرأة فى العالم الإسلامى فقد سبق أن تولت رضية الدين سلطنة دلهى واستمر حكمها أربع سنوات من عام ٦٣٤ ـ عام ٦٣٨هـ (١٢٣٦م ـ ١٢٤٠م) وكذلك حكمت أروى بنت أحمد الصليحى من سلالة بنى صليح اليمن من عام ٤٩٢هـ ـ ٥٣٢هـ (١٠٩٨م ـ ١١٣٨م).

استرضاء له.

وكان أول عمل اهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج، وإنهاء المفاوضات التى بدأت معهم على عهد توران شاه لترحيلهم عن البلاد المصرية، فلم يلبث المفاوض المصرى وهو الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى، أن اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا[1].

وقامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفانس Margret de Provence التى رافقت زوجها فى تلك الحملة، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية، وجمعت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية ثم أبحرت إلى عكا.

أخذت شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة، وتعمل على إرضائهم بشتى الوسائل، ولا سيما المماليك البحرية الذين أغدقت عليهم الأموال الطائلة والإقطاعات الواسعة والرتب العالية.

لكن المصريين عموما كرهوا قيام امرأة فى السلطنة، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة فى القاهرة حتى اضطرت الحكومة إلى غلق أبواب المدينة منعاً لتسرب أنباء الاضطرابات إلى بقية البلاد.

وكان رجال الدين من وراء هذه الحركة المعارضة وهذا ما ذكره السيوطى من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر عالم وشيخ فى ذلك الوقت كتب كتاباً حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة[2].

■ ■ ■

(١) انظر السلوك للمقريزى ـ مصدر سابق.

(٢) انظر حسن المحاضرة للسيوطى.

بداية عهد دولة المماليك البحرية فى مصر بتولى «أيبك» الحكم

كانت بداية عهد دولة المماليك البحرية بتنازل شجرة الدر عن السلطنة لزوجها الجديد الأمير المملوكى أيبك التركمانى الذى تلقب بالسلطان الملك المعز أيبك.

وكان أيبك فى نظر البعض من المماليك أقل قدراً من الأمير أقطاى المملوكى، إلا أنهم رأوا أنه شخصية يمكن السيطرة عليها وعزلها فى أى وقت وهذا كان رأى شجرة الدر التى قبلت بالزواج منه لذلك، إلا أن الأحداث أظهرت عكس ذلك كما سنرى، حين واجهته التحديات والمشاكل والقلائل وكيف تصدى لها إلا أن كيد النساء قد غلب فى نهاية الأمر.

وكان المماليك حين بايعوا شجرة الدر لتكون سلطانة على مصر قد راسلوا الخليفة العباسى المستعصم لتأييد اختيارهم وكان غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأييد الشرعى، لكن الخليفة عاب عليهم إقامة امرأة فى السلطنة، وكتب إليهم قائلاً: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»(١).

ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة، اقتنع أمراء المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولابد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه، فأشاروا على شجرة الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك التركمانى، وتتنازل له عن العرش، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة فى يوليو سنة ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوماً، فكانت آخر

(١) السلوك ـ للمقريزى.

ملوك بنى أيوب ونهاية حكمهم(١).

قال أبو المحاسن إن المماليك قد اختاروه لضعفه ولسهولة خلعه فى أى وقت شاؤوا، ولهذا أقدمت شجر الدر على قتله بسهولة كما سيأتى.

ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذى وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف فى كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك فى كتابه الآخر: «المنهل الصافى»، فمدح أيبك فيه، ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق، وهذا هو الحق والله أعلم.

وكانت المشاكل والصعاب التى واجهت السلطان أيبك، تتمثل فى تهديدات الأيوبيين والصليبيين فى الخارج، وفى ثورات الأعراب فى الداخل، ثم فى خطر زملائه المماليك فى داخل البلاد وخارجها، وقد واجهها السلطان الجديد بكل حزم وقوة وشجاعة.

وكان الخطر الأيوبى ممثلاً فى الأمراء الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق.

قام أيبك بوضع أمير من الأسرة الأيوبية، غلام صغير السن إلى جانبه فى السلطنة، وهو الأشرف موسى، عمره نحو السادسة وجعل شريكاً له فى الحكم وذلك لإرضاء الأيوبيين، ولكن هذا الفعل منه لم يرض الأيوبيين فى الشام.

عندئذ أعلن أيبك أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها(٢).

لكن الملك الناصر يوسف الأيوبى ناصب دولته العداء وأراد غزو مصر ورأى لكى يضمن النجاح لحملته على مصر، أن يضم إلى جانبه الملك لويس

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص٣٧٦.

(٢) انظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ والنجوم الزاهرة والمختصر فى أخبار البشر.

التاسع المقيم فى عكا، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذى كان تحت إمرة الأيوبيين فى ذلك الوقت، وهذا الأمر فعله أجداده بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى، وقد صحح هذا الخطأ الملك الصالح الأيوبى كما ذكرنا.

وإزاء ما فعله الملك الناصر أرسل أيبك إلى الملك الفرنسى وهدده بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأى عمل عدائى ضده وأبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف، لكن لويس التاسع فضَّل أن يقف بين الفريقين موقف الحياد، وأن يستغل نزاعهما لصالحه.

وبعد فشل الملك الناصر من مساعدة الملك الفرنسى له قام بالهجوم على مصر، وسارع أيبك للقائه، ولكه خشى فى الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجئ على مصر، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل، فوقع الهدم فى أسوارها فى شعبان سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع وأخصاص من القش على شاطئ النيل يسكنها جماعة من الصيادين وضعفاء الناس وسموها المنشية.

والتقى المماليك بالأيوبيين فى معركة عند بلدة العباسة بين مدينتى بلبيس والصالحية، فى ٣ فبراير سنة ١٢٥١م، انتصر فيها الملك الناصر أول الأمر، ولكن فرقة من مماليكه، وهم العزيزية، خذلوه وانضموا إلى المماليك البحرية(١)، وانهزم الملك الناصر ومن معه وفروا إلى الشام.

فر الناصر ومن معه من أبناء البيت الأيوبى إلى الشام منهزمين، بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من القتلى والأسرى.

وقرر أيبك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية، ولكى يضمن النجاح لمشروعه، حاول أن يضم لويس التاسع إلى

(١) انظر السلوك للمقريزى ومفرج الكروب.

جانبه، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف. وفضل لويس التاسع، بعد أن رأى انتصار الجانب المصرى أن يستجيب لعروض أيبك.

وفى مايو سنة ١٢٥٢م اتفق أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام، وكانت الخطة المتفق عليها أن يقوم لويس بالاستيلاء على يافا، ويقوم أيبك بغزو مدينة غزة، للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات الأيوبيين.

وبالفعل احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة، وتقدم المماليك بقيادة أقطاى نحو غزة، غير أن الملك الناصر يوسف، الذى علم بأخبار هذا التحالف، سبقهم إلى احتلالها، فاستطاع بهذا العمل الجرىء أن يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين، وأفسد بذلك خطتهم.

واستمرت جيوش المماليك فى الصالحية، وجيوش الأيوبيين فى غزة، كل منهما تتحفز بالأخرى، إلى أن قام الخليفة العباسى المستعصم بالصلح بينهما فى أبريل عام ١٢٥٣م ـ ٦٥١هـ.

تصدى أيبك للثورة الشعبية ضد حكمه، حيث لم يتقبل المصريون حكم المماليك فقامت الثورة الشعبية ضدهم بوصفهم لا يصلحون للحكم نظراً لأصولهم المجهولة، فقامت الثورة الشعبية للمصريين التى عرفت فى مصر بثورة العربان عام ١٢٥٣م ـ ٦٥١هـ.

قام بهذه الثورة العنصر العربى الذى استقر بمصر واتخذ من الزراعة حرفة عرف بها وكانوا أصحاب مراكز اجتماعية كبيرة، وقد استخدم المماليك القسوة فى قمع ثورة العربان.

وقد ذكر أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره

حتى فى وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة.

وكان زعيم هذه الثورة الشعبية الشريف العلوى حصن الدين بن ثعلب والذى أعلن أن ملك مصر يجب أن يكون من الأحرار العرب، وليس من العبيد المماليك، ولهذا أعلن قيام دولة عربية مستقلة فى مصر الوسطى فى منطقة الشرقية بالوجه البحرى، وامتدت دولته لتشمل نواحى الفيوم فى بلدة عرفت بذروة سريام أو ذروة شريف وهى بين النيل وترعة المنهى «بحر يوسف».

وقد استطاع الشريف حصن الدين تكوين جيش بفضل المال الذى تحصل عليه الأعراب من قتالهم للصليبيين.

وقد تصدى السلطان أيبك لهذه الثورة، حيث أرسل لهم الأمير أقطاى الذى استطاع القضاء على تلك الثورة فى موقعة بلبيس عام ١٢٥٣[١]، وظل خطر العربان قائماً خلال فترة حكم المماليك لمصر رغم تصدى المماليك لتلك الثورات.

■ ■ ■

(١) انظر السلوك للمقريزى.

قطز نائباً للسلطان أيبك ومواجهة مع المماليك الطامعين فى الحكم

كان قطز منذ قدومه مصر قد التحق بالعمل مع الأمير أيبك فكان من أخلص رجاله ومماليكه حين اعتلى عرش مصر، ولم يكن غريباً أن يصبح نائباً للسلطان وإليه انتسب فأصبح قطز المعز نسبة إلى لقب السلطان الجديد «المعز أيبك».

وكوَّن السلطان المعز أيبك فرقة من المماليك نسبت إليه وهى المماليك المعزية، ثم أصدر قراراً بخروج المماليك البحرية من معسكراتهم وثكناتهم التى أسسها لهم السلطان نجم الدين أيوب فى روضة النيل وانفرد بالسلطة بعد أن أصدر قراره بعزل السلطان الطفل الأشرف موسى الذى وضعه بشكل اسمى على العرش لإرضاء الأيوبيين وأصبح السلطان المعز أيبك سلطاناً لا يستهان به مما جعل المماليك الذين لم يعترضوا على اختياره سلطاناً ـ وظنوا أنه ضعيف الشخصية يمكن السيطرة عليه ـ حانقين غاضبين عليه يريدون الفتك به.

وكان على الجانب الآخر المعارض لأيبك زميله الأمير أقطاى وفريقه المناصر له من المماليك البحرية، وقد قويت شوكته بعد قضائه على ثورة الأعراب التى هددت السلطان الجديد «أيبك».

وأيقن أيبك أنه لابد من القضاء على المماليك المناوئين المعارضين لحكمه وزعيمهم أقطاى الذى أصبح خطراً يهدد العرش، ولاسيما بعد أن

تجمع حوله العديد من المماليك الذين لا يفارقونه، وكذلك زواجه من إحدى أميرات الأسرة الأيوبية ابنة الملك المظفر تقى الدين محمود ملك حماه.

وخشى أيبك على حياته بعد أن وصلته الأخبار أن الأمير أقطاى يخطط لاغتياله كى يجلس على عرش السلطنة، وتأكد هذا لأيبك حين طلب أقطاى منه أن يسمح له بالإقامة فى القلعة مقر الحكم بمناسبة زواجه الجديد[1]، وتأكد لدى «أيبك» أن أقطاى ومماليكه قد عقدوا العزم لقتله.

استدعى أيبك غريمه أقطاى للمثول أمامه فى القلعة لاستشارته فى بعض الأمور وذلك يوم ٣ شعبان ٦٥٢هـ ـ ١٢٥٤م، ودبر أيبك اغتيال أقطاى بمساعدة نائبه قطز وبعض مماليكه المعزية.

وفى الميعاد المحدد حضر أقطاى، إلى القلعة ومعه عدد من مماليكه ودخل من باب القلعة المؤدى إلى قاعة العواميد «القاعة الكبرى»، فتم إغلاق الباب ومنعت المماليك المصاحبة له من الدخول، وبسرعة انقض عليه الأمير قطز ومن معه من المماليك المعزية وقتلوه بالسيوف.

وأذيع فى القاهرة نبأ مقتل أقطاى وهرع إلى القلعة لإنقاذه سبعمائة من مماليكه وزملائه وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقدارى والأمير قلاوون الألفى، وهم يظنون أنه قد اعتقل ولم يقتل إلا أنهم فوجئوا بمقتله وألقى رأسه إليهم من سور القلعة[2].

وأحيط بهم حتى إنهم خشوا على أنفسهم فلاذوا بالهرب وقد أغلقت عليهم أبواب القاهرة فاضطروا إلى حرق أحد أبوابها الشرقية وهو باب القراطين الذى عرف فيما بعد بالباب المحروق[3].

(١) انظر النجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

(٢) السلوك للمقريزى وبدائع الزهور.

(٣) انظر نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام لصارم الدين إبراهيم بن محمد أبدر العلائى ـ ابن دقماق.

ولجأ البعض منهم إلى الملوك من بنى أيوب فى الشام والتجأ مائة وثلاثون منهم إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بآسيا الصغرى، وكان من أمراء المماليك الفاريين الأمير ركن الدين بيبرس، والأمير قلاوون الألفى وسنقر الأشقر وبرامق وغيرهم[١].

وكانت لتلك الواقعة وهذا الاغتيال الأثر الفعال فى قتل بيبرس لقطز بعد معركة عين جالوت كما سيأتى ذكره إن شاء الله، فقد كان بيبرس البندقدارى من أخلص مماليك الأمير أقطاى.

وقام السلطان «أيبك» بمصادرة أموال المماليك البحرية وألقى القبض على من بقى منهم فى مصر وأرسل إلى الملوك الذين لجأ إليهم الفارون، فطلب منهم الملك الناصر يوسف الأيوبى إعادة البلاد التى أخذها من فلسطين إليه كى يقيم فيها المماليك البحرية، وبالتالى يكون قد أرضاهم وأبعدهم فاستجاب «أيبك» له ورد له مدينة القدس وساحل فلسطين، ولكنه خشى أن يقوم الناصر يوسف بغزو مصر بمساعدة المماليك البحرية عنده فقام بإرسال جيوشه إلى الحدود المصرية قرابة السنوات الثلاث حتى اطمأن له وخاصة بعد إجراء الصلح بينهما عام ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م بواسطة الخليفة العباسى.

واشترط أيبك فى هذا الصلح مغادرة المماليك البحرية للشام عند الملك الناصر فاستجاب له فاضطر المماليك البحرية إلى اللجوء إلى ملك الكرك المغيث عمر[٢].

■ ■ ■

(١) انظر نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام لصارم الدين إبراهيم بن محمد أبدر العلائى ـ ابن دقماق.

(٢) انظر السلوك للمقريزى.

«أيبك» وزوجته «شجرة الدر» ونهاية مؤلمة لهما وبداية ظهور قطز حاكماً لمصر

حين اختارت شجرة الدر أن تتزوج وتتنازل عن السلطنة لزوجها الجديد لم يكن فى نيتها أن تتنازل عن الحكم، ولهذا كان اختيارها للأمير «أيبك» الذى ظنت إمكانية السيطرة عليه.

ولكن هذا الظن لم يغن عن الحق شيئاً فقد أظهر أيبك براعة فى سياسة أمور الدولة واستطاع القضاء على منافسيه وتقرب من الخليفة العباسى كى يضفى الشرعية على حكمه.

وأرادت شجرة الدر التخلص من أيبك الذى تمرد عليها ولم يشركها فى حكم البلاد وتخلص من المماليك البحرية المناصرة لها، ووصلت الأخبار بأنها قد أرسلت رسلاً إلى المماليك الفارين عند ملك الكرك.

ومما زاد الأمر سوءاً هو عزم «أيبك» على الزواج من ابنة ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ وهو من أصول مملوكية، فقد كان مملوكاً لنور الدين أرسلان شاه زنكى ثم بعد موت أستاذه استقر فى الملك بعد ولده القاهر مسعود عام ٦٣١هـ.

أرسل أيبك إلى الملك بدر الدين وأوضح رغبته فى قيام تحالف بينهما بواسطة زواج سياسى، وقد علمت شجرة الدر بأمر ذلك الزواج فكانت الغيرة والكيد النسائى «لأيبك».

وقد وقف من بقى من المماليك البحرية خلف شجرة الدر بوصفها

زوجة سيدهم السابق، فعارضوا زواج السلطان من ابنة ملك الكرك، مما أدى إلى اعتقال عدد كبير منهم وسجنهم فى الجب.

وأرسلت شجرة الدر أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف الأيوبى بهدية ورسالة تخبره بعزمها على قتل أيبك ثم الزواج منه وجعله سلطاناً على مصر.

إلا أن الناصر يوسف لم يجبها بالنفى أو الإيجاب فقد ظن أن فى الأمر خدعة ما فتوقف.

وأرسل الملك بدر الدين لؤلؤ إلى أيبك يحذره من شجرة الدر بعد أن علم بأمر العرض الذى عرضته شجرة الدر على الملك الناصر.

وهكذا وصلت الأمور إلى منتهاها، وأدرك أيبك أن حياته فى خطر وعليه التخلص من شجرة الدر، وكان كيد النساء أسبق من تدابير وخطط الرجال.

فقد أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة تدعوه للحضور لديها بالقلعة فاستجاب لها، وكانت نهايته هناك.

فقد كانت شجرة الدر قد جهزت له كتيبة إعدام من خمسة شباب من المماليك منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزى وسنجر ـ أحد مماليك أقطاى ـ فقاموا بقتله فى الحمام وذلك فى أبريل عام ١٢٥٧م ـ ٦٥٥هـ وقد قيل إنه قتل أثناء استحمامه بالضرب بالقباقيب الخشبية(١)، وحاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل حيث ادعت أن أيبك سقط من فوق جواده أثناء عدوه فمات من فوره وجهزته للدفن.

فقد كشف مماليك السلطان المعز بقيادة الأمير قطز الحقيقة حين هرعوا إلى قصر السلطان حين ذاع خبر مقتل السلطان أيبك فى القاهرة بالقلعة وتم القبض على من كان موجوداً من الخدم والحريم بالقصر وتم

---

(١) انظر النجوم الزاهرة، وبدائع الزهور، والسلوك ـ للمقريزى.

إجراء التحقيق فى الجريمة وكشفت الحقيقة والمؤامرة، فصدر قرار المماليك المعزية بقتل شجرة الدر، إلا أن المماليك الصالحية حالوا بينهم وبينها وحاولوا إنقاذ زوجة سيدهم باعتقالها فى البرج الأحمر من الجهة الجنوبية للقلعة «برج المقطم» ولكن المماليك المعزية أنصار أيبك حاصروا البرج وقد عزموا أمرهم على قتل شجرة الدر(١).

وقامت الزوجة الأولى للسلطان أيبك وأم ابنه تلح على مماليك أيبك بالانتقام وتسليم شجرة الدر لها كى تأخذ بثأر زوجها السلطان.

وبالفعل استجاب المماليك الصالحية لهذا الضغط وتم تسليم شجرة الدر إلى زوجة السلطان أيبك الأولى التى أصدرت أمرها لجواريها بقتل شجرة الدر بالضرب بالقباقيب الخشبية حتى الموت، كما فعلت مع زوجها ثم ألقوها من فوق سور القلعة إلى الخندق عارية ليس عليها سوى سروال وقميص وبقيت جثتها أياماً حتى إن العامة من الناس سرقوا تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام، وقد تعفنت جثتها فحملت فى قفة لقبرها قرب المشهد النفيس «السيدة نفيسة»(٢).

وهكذا انتهى حكم أول السلاطين المماليك والذى دام سبع سنوات، وانتهى أمره على يد المرأة التى دبرت قتل السلطان السابق «توران شاه» ابن زوجها وسيدها الملك الصالح، فقد اعتادت على حسم خلافاتها مع خصومها بالقتل غير العادى فقتل توران شاه بالسيف والحرق والغرق، وقتلت زوجها أيبك بالقباقيب فى الحمام ضرباً ونالت جزاءها فكان الجزاء من جنس العمل، فماتت بأيدى النساء بنفس الطريقة التى قتلت بها زوجها.

فقد قتلت زوجها دون سبب مقبول وإنما من دافع الغيرة النسائية

---

(١) حاولت شجر الدر إنقاذ نفسها بأن عرضت على جمال الدين العزيزى وعز الدين أيبك الحلبى تولى الحكم إلا أنهما رفضا عرضها.

(٢) ذكر ذلك المقريزى فى السلوك.

وبطريقة مهينة وبشعة وهكذا كانت نهايتها أيضاً.

قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء عن السلطان المعز أيبك: كان ديناً عاقلاً كريماً تاركاً للشرب.

هكذا كانت نهاية السلطان والسلطانة مؤلمة لا تليق بأخلاق الملوك والأمراء، وأصبح هذا الأسلوب فى صنع النهايات والوصول إلى كرسى السلطنة أسلوباً لحكم المماليك على مر العصور فى مصر والشام، كما كان هذا حالهم أيضاً فى الدولة العباسية حين استعان الخلفاء العباسيون منذ عصر الخليفة المعتصم بهم(١).

المهم أن الأمر انتهى بالعصبية الحزبية، فقد تعصب المماليك المعزية أتباع السلطان المعز أيبك لابن سيدهم فقاموا بتنصيب الابن الصغير نور الدين على ولقبوه بالمنصور وجعلوه سلطاناً على مصر فى ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م وكان عمره يومها خمس عشرة سنة.

وبالطبع فقد لاقى هذا الاختيار الذى بُنى على التعصب معارضة من المماليك الصالحية الذين اختاروا أتابك العسكر الأمير علم الدين سنجر الحلبى وحلفوا له ليكون سلطاناً على البلاد.

لكن المماليك المعزية أسرعوا وقاموا بالقبض على الأمير سنجر وسجنوه فى الجب بالقلعة، عندها خاف زملاؤه من المماليك وهرب الكثير منهم خارج البلاد إلى الشام وتعقبهم المماليك المعزية وألقوا القبض على الكثير منهم.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد ثارت بعض الطوائف من المماليك، فتصدت لهم المماليك المعزية وتطورت الأمور. إلا أن المماليك المعارضين لتولى السلطان الطفل لملك مصر قد لجأوا إلى ملوك الأيوبيين بالشام

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ففيه المزيد عما فعله السلاطين الأتراك فى الخلفاء العباسيين.

لاستعادة ملكهم فى مصر، واستجاب لهم المغيث عمر ملك الكرك[1].

وحاول الاستيلاء على مصر مرتين عام ١٢٥٧م ـ ٦٥٥هـ وفى عام ١٢٥٨م ـ ٦٥٦هـ ولكن الأمير قطز نائب السلطان والحاكم الفعلى للبلاد استطاع صد هذا الهجوم.

لقد كان هذا الصراع دائراً مشتعلاً والتتار المغول بقيادة هولاكو يحصدون البلاد الإسلامية شرقاً ويحاصرون بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.

لقد تمخضت كل هذه الأحداث عن سيطرة الأمير قطز على الحكم بمصر وهروب الكثير من المماليك إلى خارج مصر، فكان قدوم المغول التتار إلى الشام بعد ذلك أهم الأسباب لتوحيد الصفوف ونبذ الخلافات وهذا ما استطاع قطز تحقيقه حين تولى المسؤولية فى مواجهته للتتار.

■ ■ ■

(١) الكرك حالياً ضمن مدن الأردن.

4

الخطوات الحاسمة لقطز قبل مواجهة المغول التتار

- ظهور قطز فى الأحداث المضطربة فى مصر بعد مقتل أيبك.
- قطز سلطاناً على مصر.
- سلطان العلماء العز بن عبد السلام ومساندته لقطز فى مواجهة التتار المغول.
- الخطر المغولى القادم من الشرق يهدد الدولة المملوكية فى مصر.

ظهور قطز فى الأحداث المضطربة فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك

استطاع قطز بوصفه نائباً للسلطان السابق والحالى أن يضبط أمور البلاد المضطربة التى أثارها المماليك الطامعون فى الحكم والسلطنة، واستعانوا بملوك الأيوبيين فى الشام مما شجع الملك المغيث عمر ملك الكرك فى محاولته لغزو مصر مرتين فتصدى له قطز وهزمه وأعاده إلى بلاده خاسراً.

أما المماليك الصالحية داخل مصر فقد عزموا الأمر على الانقلاب على المماليك المعزية وقائدهم قطز وحاولوا تنصيب الأتابك سنجر الحلبى سلطاناً على مصر، فسارع قطز باعتقاله وحبسه فى سجن القلعة.

تطورت الأمور بهروب الكثير من المماليك المعارضين إلى الشام فطاردهم قطز وقبض على الكثيرين منهم وسجنهم فى سجون القلعة.

استقرت الأمور نسبيّاً لقطز فى مصر وأصبح الحاكم الفعلى، حيث إن السلطان الجالس على العرش طفل صغير.

وانشغلت مصر ومماليكها بالصراعات كما ذكرنا ولم يلتفت أحد إلى الخطر القادم إليهم من جهة الشرق وهم التتار المغول الذين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلادهم.

ولأن عصر المماليك من العصور التى امتلأت بالمؤامرات السياسية، فقد أشيع أن السلطان الطفل الجالس على عرش مصر يريد خلع نائبه الأمير قطز من منصبه إلا أن قوة الأمير قطز وسلطانه أفشلت تلك المحاولة واجتمع الأمراء من المماليك المعزية وأصلحوا بين السلطان الطفل

ونائبه قطز[1].

وقام قطز بإصلاح الأمور الداخلية فى مصر بعد أن تصدى للأخطار الخارجية وأطماع الأمراء الأيوبيين فى استرداد مصر وغزوها، فقام بالقبض على الأمراء المماليك الموالين للملك المغيث عمر وهم الأمير عز الدين أيبك الرومى الصالحى والأمير سيف الكافورى الصالحى الأشرفى والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفى والأمير بدر الدين بلغان الأشرفى وغيرهم فضُربت أعناقهم وصودرت ممتلكاتهم، فاستقرت الأمور فى مصر لحكم قطز القادم بوصفه سلطان البلاد وذلك بعد عزل السلطان الطفل وأمه التى كانت تريد حكم البلاد من خلف الأستار، كما أرادت شجرة الدر مع عز الدين أيبك.

فبعد ثلاث سنوات من حكم السلطان الصغير ابن أيبك اقتربت رياح الغزو التتارى لبلاد الشام ومصر.

ولم يكن أمام قطز ـ وقد جاءت الأخبار باقتراب التتار من الشام بعد سقوط دولة الخلافة فى بغداد وقد أرسل إليه الملك الناصر من يخبره بالأمر ويستنجد به ـ إلا أن يعقد قطز بوصفه نائب السلطان اجتماعاً لأهل الرأى والشورى فى حضرة السلطان الصبى المنصور نور الدين على وحضره الفقهاء والقضاه مثل الشيخ العز بن عبد السلام وبدر الدين السنجارى قاضى القضاة وأخبرهم بمجريات الأمور والخطر التتارى القادم.

وفى هذا الاجتماع عرض قطز على الحاضرين مساوئ السلطان الصغير الذى لا يعرف تدبير الملك ويقضى وقته منشغلاً باللعب مثل أقرانه من الأطفال وأن أمه تتحكم فى أمور الدولة باسمه.

وكان هذا اللقاء تمهيداً لقطز لخلعه السلطان الصبى وعزله وتنصيبه نفسه مكانه لمواجهة خطر التتار الذى يحتاج لقيادة حكيمة وحازمة للبلاد.

(١) انظر النجوم الزاهرة ـ مصدر سابق.

وانتهز قطز الفرصة المناسبة حين خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية للصيد فى منطقة العباسية بالشرقية وفى يوم ٢٤ ذو القعدة عام ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م قام باعتقال السلطان الصبى وأخيه قاقان وأمهما وحبسهم فى أحد أبراج القلعة وهكذا انتهت مدة حكم السلطان الصبى ابن أيبك التى دامت سنتين وثمانية أشهر وأياما.

وقام قطز بتغييرات فى دولاب الحكم السياسى لتدعيم حكمه فى الداخل فأصدر أوامره بتعيين الوزير زين الدين يعقوب بدلاً من الوزير ابن بنت الأعز.

وحين قدمت المماليك المعزية من رحلة الصيد بقيادة الأمير سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغتمى أنكروا عليه ما فعله فأخبرهم بخطر التتار القادم على مصر والشام وقال لهم: إن ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم فى السلطنة ما شئتم[1].

أى أنه أخبرهم أن قيادته مؤقتة بمواجهة العدو القادم على حدود البلاد وعليهم بعد ذلك اختيار من يولونه بعد ذلك، فرضى الأمراء المماليك بذلك.

▪ ▪ ▪

---

(١) انظر السلوك للمقريزى.

قطز سلطاناً على مصر

استلم قطز السلطة والمسؤولية فى مصر، فقد كان الوضع فى مصر عندما بدأ التتار فى اجتياح الشام والاقتراب من الديار المصرية متأزماً جداً، فالمسرح السياسى الداخلى كان يموج بالاضطرابات العاصفة، والأزمات الشديدة، وكانت الفتن الناتجة عن التصارع على كرسى الحكم ـ وخاصة فى السنوات العشر الأخيرة ـ عنيفة ومتكررة، فبعد أن استقر الوضع نسبياً عندما تولى الملك المعز عز الدين أيبك، وذلك لفترة سبع سنوات متصلة، ولكنها عادت من جديد للاشتعال بمقتل الملك المعز ثم شجرة الدر، ثم ولاية الطفل نور الدين على، ثم خلعه بواسطة قطز.

وكان الخطر الآخر القريب هم المماليك البحرية الذين فر الكثير منهم إلى مختلف الإمارات الإسلامية فى الشام، ومن بقى منهم فى مصر بقى على وجل وترقب، وهذا الانقسام أضعف القوة العسكرية المصرية؛ لأن المماليك البحرية كانوا أساس الجيش المصرى فى ذلك الوقت.

كان الوضع السياسى والعسكرى داخل البلاد على هذه الصورة الخطيرة فإن المسرح السياسى الخارجى كان يحمل مشكلات أخرى كبيرة. فالعلاقة مع كل إمارات الشام كانت مقطوعة تماماً، بل كانت روح العداء الشديد هى السائدة بين الطرفين، كما لم يكن لمصر أى سند من دول الشمال الإفريقى أو السودان.

ولم يكن الوضع الاقتصادى فى مصر بأحسن حالاً من الوضع السياسى أو الاجتماعى؛ فهناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، ومن جراء الحروب التى دارت بين مصر

وجيرانها من الشام، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلى، كما أن الناس انشغلوا بأنفسهم وبالفتن الداخلية والخارجية فتردّى الاقتصاد إلى أبعد درجات التردى، وباتت البلاد بتلك الظروف السيئة مهيئة للهزيمة الساحقة أمام التتار.

وهكذا استلم سيف الدين قطز هذه التركة المثقلة بالهموم والمشاكل لكنه رحمه الله واجه هذه المشاكل بكل حكمة وعزم على الانتصار للإسلام ورفع رايته عالية فكان شعار وا إسلاماه، وكان حل تلك المشاكل بالتوحد فى المواجهة، فكانت الخطوة الأولى التى حرص عليها قطز هى استقرار الوضع الداخلى فى مصر، وقطع أطماع الآخرين فى كرسى الحكم الذى يجلس عليه.

لقد جمع قطز رحمه الله الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأى فى مصر، وكل هؤلاء من المحركين الفعليين لطوائف الشعب المختلفة، وقال لهم فى وضوح كما ذكرنا إن سبب توليه للسلطنة هو مواجهة العدو، (أى ما قصدت من السيطرة على الحكم إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولايتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا فى السلطنة من شئتم).

وهذا الكلام أراح الجميع وأرضاهم.

كما قام قطز أيضاً بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا على سلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبيّاً فى مصر، وعلم قطز أن الناس إن لم يُشغلوا بالجهاد شغلوا بأنفسهم.

ولذلك فبمجرد أن اعتلى عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاى الصغير أن يجهزا الجيش، ويعدا العدة، وينظما الصفوف، فانشغل الناس بهذه الغاية النبيلة، والمهمة الخطيرة

«الجهاد فى سبيل الله» «وإسلاماه»، وبذلك استقرت الأحوال المحلية فى مصر، وتوحد الصف الداخلى، فى مواجهة عدو واحد.

وساعد قطز فى تحفيز الناس للجهاد الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله. قال قطز فى صراحة للأمراء المماليك: ـ يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين عن القتال.

لقد أوضح قطز القضية فلا إكراه فى الخروج للجهاد، من أراد أن يخرج للجهاد فى سبيل الله فليفعل، ومن أراد النكوص على عقبيه، والركون إلى الدنيا فليعلم أن الله مطلع عليه، وليعلم أن حرمات المسلمين والمسلمات التى تُنتهك فى رقبته.

ولا يخفى علينا الإشارة المهمة التى ذكرها قطز من أن هؤلاء الأمراء والوزراء قد عاشوا سنوات يأكلون من بيت مال المسلمين، بل ويكثرون من الأكل والجمع حتى فقدت وظائفهم كل معنى، ولم يبق لها إلا معنى واحد هو استغلال المنصب لأقصى درجة لزيادة الثروة، من الحلال وغير الحلال على السواء، وما عاد الوزير يعتقد أنه موظف عند الشعب وليس سيداً عليهم، وانه كما أن له حقوقا فإن عليه واجبات، وأنه مسؤول ومحاسب من الله ومن شعبه على كل خطوة، وعلى كل درهم أو دينار.. لقد كانت هذه الكلمات من قطز تهدف إلى إيقاظ الضمير، وإلى إحياء الأمانة، وكشفت هذه الكلمات الأمراء أمام أنفسهم، ثم تحركت المشاعر بصورة أكبر وأكبر فى صدر قطز رحمه الله، حتى وقف يخاطب الأمراء وهو يبكى ويقول: ـ «يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن».

وقعت الكلمة فى قلوب الأمراء، فضجوا جميعاً بالبكاء وخشعت القلوب وقام بعض الأمراء وتكلموا بخير، فقام البقية يعلنون موافقتهم على الجهاد،

وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وهكذا نجح قطز فى خطوة هى من أصعب خطوات حياته، وهكذا تهيأت مصر للحرب والمواجهة.

▪ ▪ ▪

مساندة سلطان العلماء «العز بن عبد السلام» للسلطان قطز فى مواجهة التتار

كان للعلماء قديماً وحديثاً أدوار هامة فى تجهيز الشعوب لمواجهة اعدائها، وفى زمان الخطر المغولى على العالم الإسلامى ظهر العز بن عبدالسلام الملقب بسلطان العلماء وبائع الملوك، وقد سبق له أيضاً مواجهة خطر الصليبيين، فكان لزاماً علينا تسليط الضوء على هذا العالم الربانى الذى ساند قطز فى مواجهة المغول.

إنه أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذب السُّلمى، مغربى الأصل.

ولد فى دمشق فى سوريا عام ٥٧٧هـ ، وعاش فيها وبرز فى الدعوة والفقه، وقد نشأ فى دمشق فى كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة، وابتدأ العلم فى سن متأخرة نسبيّاً. كان العز بن عبد السلام جليلاً مهاباً حسن الصورة، منبسط الأسارير، متواضعاً فى مظهره وملبسه، وكان لا يتأنق ولا يتكلف الحشمة ولا يستألف الوقار استئلافاً، وقد يلبس قبعة اللباد (طاقية من الصوف يغلب عليها اللون الداكن أو الأبيض)، كان يحضر الأماكن العامّة والمجالس الرسمية بها.

وقد خالط العزّ كبار رجال دولة بنى أيوب التى أنشأها صلاح الدين فى الشام ومصر.

يروى السبكى عن والده أن العزّ بن عبد السلام كان فقيراً فى أول أمره، ولم يشتغل بالعلم إلا على كبر، وأنه قد ابتدأ بقراءة «التنبيه» فحفظه فى مدة وجيزة، ثم أقبل بعد ذلك على المزيد من العلم حتى صار أحد أعلم زمانه.

فقد قصد العزّ فطاحل العلماء فى عصره، وجلس فى حلقاتهم، ونهل من علومهم، وتأثر بأخلاقهم، واستوعب العلوم فى مدة تعتبر وجيزة. فقد قال عن نفسه: «ما احتجت فى علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذى أقرأ عليه إلا وقال لى الشيخ: قد استغنيت عنى، فاشتغل مع نفسك، ولم أقنع بذلك، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذى أقرأه عليه فى ذلك العلم».

وجمع العزّ فى تحصيله بين العلوم الشرعية والعلوم العربية، فقد برز أيضاً فى اللغة والنحو والبلاغة وعلم الخلاف.

وكان أكثر تحصيله فى دمشق نفسها، ولكنه ارتحل أيضاً إلى بغداد للازدياد من العلم، إذ كانت فى زمانه الرحلة لطلب العلم قاعدة مستقرة، تعتبر منقبة ومفخرة لصاحبها. وقد رحل إلى بغداد عام ٥٩٧هـ وأقام بها أشهراً، ثم عاد إلى دمشق.

وكان من شيوخه: ـ فخر الدين بن عساكر، وقد قرأ عليه الفقه، وسيف الدين الآمدى، وقد قرأ عليه الأصول، والحافظ أبى محمد القاسم ابن عساكر، وقد سمع منه الحديث.

حكم دمشق فى أيام العزّ بن عبد السلام الملك الأشرف موسى، ومن بعده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل من بنى أيّوب، فقدّرا للعز تفوّقه فى العلم وولياه خطابة جامع بنى أمية الكبير بدمشق.

وبعد فترة قام الملك الصالح بقتال ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، حاكم مصر آنذاك، لانتزاع السلطة منه، مما أدّى بالصالح إسماعيل إلى موالاة الصليبيين، فأعطاهم حصن الصفد والثقيف وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والتزوّد بالطعام، وغيره، فاستنكر العزّ بن عبد السلام ذلك وصعد المنبر وخطب فى الناس خطبة عصماء، فأفتى بحُرمة بيع السلاح للفرنجة، وبحُرمة الصلح معهم، وقال فى آخر خطبته «اللهم أبرم

أمراً رشداً لهذه الأمة، يعزّ فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك».

ثم نزل من المنبر دون الدعاء للحاكم الصالح إسماعيل كعادة خطباء الجمعة فاعتبر الملك ذلك عصياناً وشقاً لعصا طاعته، فغضب على العزّ وسجنه.

فلما تأثر الناس، واضطرب أمرهم، أخرجه الملك من سجنه وأمر بإبعاده عن الخطابة فى الجوامع، فترك العزّ الشام وسافر إلى مصر.

جاء العزّ بن عبد السلام إلى مصر سنة ٦٣٩هـ ، فرحب به الملك الصالح نجم الدين أيوب وأكرم مثواه، ثم ولّاه الخطابة والقضاء، وكان أول ما لاحظه العزّ بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك، وهم مملوكون لغيرهم، بالبيع والشراء وقبض الأثمان والتزوج من الأحرار، وهو ما يتعارض فى نظره مع الشرع الإسلامى، إذ هم فى الأصل عبيد لا يحق لهم ما يحق للأحرار.

فامتنع أن يمضى لهم بيعاً أو شراء، فتألبوا عليه وشكوه إلى الملك الصالح الذى لم تعجبه بدوره فتوى العزّ، فأمره أن يعْدل عن فتواه، فلم يأتمر بأمره، بل طلب من الملك ألا يتدخل فى القضاء، إذ هو ليس من شأن السلطان، وأدّى به إنكاره لتدخّل السلطان فى القضاء أن قام فجمع أمتعته ووضعها على حماره ثم قال: «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها»؟ إشارة منه إلى الآية القرآنية.

ويرْوى أنه تجمع أهل مصر حوله، واستعدّ العلماء والصلحاء للرحيل معه، فخرج الملك الصالح يترضّاه، وطلب منه أن يعود وينفذ حكم الشرع. فاقترح العزّ على الأمراء المماليك أن يعقد لهم مجلساً وينادى عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين.

وعندما نصحه أحد أبنائه بأن لا يتعرّض للأمراء خشية بطشهم ردّ عليه بقوله: أأبوك أقل من أن يُقتل فى سبيل الله؟

وفى آخـر دولة الأيوبيـين تولت شـجـرة الدر الحكم وكـان العـزّ بن عبدالسلام من الذين استنكروا الأمر وعارضوه جهرة، لاعتقاده مخالفة ذلك للشـرع، ولم يدم حكم شـجـرة الدرّ سـوى ٨٠ يومـاً، إذ تنازلت عن عرشها للأمير عز الدين أيبك الذى تزوجته كما ذكرنا ذلك.

وبعد وصول قطز لسدّة الحكم فى مصر، وظهر خطر التتار ووصول أخبار فظائعهم، عمل العزّ على تحريض الحاكم واستنفاره لملاقاة التتار الزاحفين.

ولما أمر قطز بجمع الأموال من الرّعية للإعداد للحرب، وقف العزّ بن عبد السلام فى وجهه، وطالبه بألا يأخذ شيئاً من الناس إلا بعد إفراغ بيت المال، وبعد أن يخرج الأمراء وكبار التجار من أموالهم وذهبهم المقادير التى تتناسب مع غناهم حتى يتساوى الجميع فى الإنفاق، فنزل قطز على حكم العزّ بن عبد السلام.

هكذا كان عوناً لقطز، وجاب بلاد مصر يحرض الناس على الخروج لقتال المغول ويقرأ عليهم سورتى الأنفال والتوبة حتى تحقق النصر بإذن الله.

ولم ينته دور العز بن عبد السلام بعد موقعة عين جالوت ولكنه استمر فى قول الحق أمام كل السلاطين والملوك الذين عاصرهم، فقد تكرر قوله للحق فى عهد السلطان الظاهر بيبرس حين تولى الحكم فى مصر بعد قتله لقطز، فحين استدعى بيبرس الأمراء والعلماء لبيعته كان منهم العز بن عبد السلام والذى فاجأ الظاهر بيبرس بقوله: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار - لا تصلح بيعته.

فأحضر بيبرس ما يثبت أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب الذى أعتقه، وهنا بايع الشيخ بيبرس. وكان الظاهر بيبرس رغم شدته وسطوته فى الحكم يبجل ويقدر العز بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقر ملكى إلا الآن!!

تعددت مساهمات العز بن عبد السلام فى الإفتاء والخطابة والقضاء والتدريس والتأليف، وله فى كل إسهام قدم راسخة ويد بيضاء، وانتهت إليه فى عصره رياسة الشافعية، وبلغت مؤلفاته ثلاثين مؤلفاً، وهى دليل نبوغ فذ وقدرة عالية على أن يجمع بين التأليف وأعماله الأخرى التى تستنفد الجهد وتفنى الأعمار فيها، لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، فاجتمع له من الفضل ما لم يجتمع إلا للأفذاذ النابغين من علماء الأمة.

وشملت مؤلفاته التفسير وعلوم القرآن والحديث والسيرة النبوية، وعلم التوحيد، والفقه وأصوله والفتوى. ومن أشهر كتبه: قواعد الأحكام فى مصالح الأنام، والغاية فى اختصار النهاية فى الفقه الشافعى، ومختصر صحيح مسلم، وبداية السول فى تفضيل الرسول، والإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز، وتفسير القرآن العظيم، ومقاصد الصلاة، ومقاصد الصوم.

ومن مؤلفاته: الفوائد فى اختصار المقاصد، وتفسير القرآن، والإمام فى بيان أدلة الأحكام، وقواعد الأحكام فى مصالح الأنام ومن تلاميذه: ابن دقيق العبد وأبو شامة النجومى المؤرخ وشهاب الدين القرافى وشرف الدين الدمياطى.

وتوفى رحمه الله فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ بمصر.

■ ■ ■

الخطر المغولى القادم من الشرق إلـــى الشـــام ومـصــر يهدد دولة المماليك فى مصر

المغول أو المُنغُول، قوم نشؤوا فى أواسط شرق آسيا فى منطقة منغوليا، والمغول إحدى السلالات المنتمية إلى القومية التركية وهى من قبائل يأجوج ومأجوج[1] استطاع جنكيزخان المغول أن يوحد تلك القبائل تحت قيادته، فقد كانوا فى البداية قبائل صغيرة ومتناثرة حول نهر أونون ما بين روسيا ومنغوليا حاليا، توحدت معظم قبائل المغول والترك بالقرن الثالث عشر تحت مظلة حكم جنكيزخان.

لم يتم تحديد أصل اللغة المنغولية بالضبط، فبعض علماء اللسان يرجعها إلى أنها تطورت من مجموعة التانغوسية التى هى جزء من الطاى والبعض يرجعها إلى تأثير اللغة السيبيرية القديمة.

ويتوزع المنغول حاليا ما بين منغوليا والصين (منغوليا الداخلية) وروسيا وآسيا الوسطى ويوجد منهم أقليات بأفغانستان كالهازارا (أقلية شيعية حول مزار الشريف ويوجد منهم أيضاً بإيران) والمغول (أقلية موجودون حول هيرات) والإيماك.

ظلت القبائل فى منازعتها وتمزقها حتى ظهور جنكيزخان الذى وحّد تحت إمرته قبائل المغول والتتار، وابتدأ فتوجه فى شمال الصين فأخضع معظمها، ثم اتجه غرباً، فدمر الدولة الخوارزمية واحتل ممالكها على التتابع: بلاد ما وراء النهر ثم خرسان ثم فارس.

---

(١) اقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء» الناشر دار الكتاب العربى.

ثم انقسمت دولة المغول إلى ثلاثة أقسام، كان القسم الجنوبى الغربى من نصيب هولاكو، فتابعت جيوشهم المسير حتى دخلت بغداد عنوةً (٦٥٦)هـ، ثم قتل المغول الخليفة العباسىّ بعدما أعطوه الأمان، وقتلوا حامية بغداد. كما سيأتى ذكر ذلك فى حينه إن شاء الله باختصار[١].

ظهرت قوة التتار المغول فى أوائل القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٣هـ ـ ١٢٠٦م، وكان ظهورها الأول فى (منغوليا) فى شمال الصين، وكان اول زعمائها هو جنكيزخان كما ذكرنا، ويطلق اسم التتار ـ وكذلك المغول ـ على الأقوام الذين نشؤوا فى شمال الصين فى صحراء (جوبى)، وإن كان التتار هم أصل القبائل بهذه المنطقة. ومن التتار جاءت قبائل أخرى مثل قبيلة المغول، وقبائل الترك والسلاجقة، وغيرها. وعندما سيطر المغول ـ الذين منهم جنكيزخان ـ على هذه المنطقة أطلق اسم (المغول) على هذه القبائل كلها.

أراد جنكيز خان غزو العالم فبدأ بغزو بلاد الإمبراطورية الصينية المجاورة له ونجح فى ذلك ثم توجه غرباً نحو دول العالم الإسلامى فقام بغزو الإمبراطورية المجاورة له أيضاً وهى الإمبراطورية الخوارزمية الإسلامية وكانت تضم عدة أقاليم إسلامية مثل: أفغانستان، وأوزبكستان، والتركمنستان، وكازاخستان، وطاجكستان، وباكستان، وأجزاء من إيران واستطاع احتلال معظم أراضيها وتدمير مدنها العامرة مثل بخارى وسمرقند، ثم أراد استكمال مشروعه التوسعى باحتلال باقى الدول الإسلامية، وإسقاط الخلافة العباسية. واحتلال بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية لكن القدر لم يمهله فمات بعد أن أوصى أبناءه باستكمال مشواره.

وتولى ابنه منكوخان زعامة دولة التتار وهو يفكر فى إسقاط الخلافة العباسية باجتياح العراق، ثم بعد ذلك اجتياح الشام ومصر، وكان منكوخان قائداً قويّاً حازماً، لكن ساعده بصورة أكبر إخوته الثلاثة الذين كانوا عوناً له

(١) اقرأ كتابنا «هولاكو مارد قادم من الشرق» الناشر دار الكتاب العربى.

فى تحقيق أحلامه، فأحدهم وهو (أرتق بوقا) ظلّ معه فى (قراقورم) العاصمة؛ ليدير معه الإمبراطورية الواسعة، واما الأخ الثانى (قبيلاى) فقد أوكل إليه إدارة الأقاليم الشرقية التى تضم الصين وكوريا وما حولهما من أقاليم، واما الأخ الثالث (هولاكو) فقد أصبح مسئولاً عن إدارة إقليم فارس وما حوله؛ مما يجعله فى مواجهة الخلافة العباسية مباشرة.

ومنذ تسليم هولاكو قيادة قطاع فارس وهو يُعِدُّ العُدَّة لإسقاط الخلافة العباسية. لقد كان باهراً فى إعداده، بقدر ما كان رد فعل المسلمين فى هذا الإعداد تافهاً غير مبالٍ، وإذا كان الوضع كذلك فلابد أن ينتصر هولاكو على مناوئيه وإن كانوا مسلمين؛ فقد كان هجوم التتار على أى بلد كاسحاً بربرياً يقتلون ويحرقون ولا يتركون شيئاً قائماً وإن كان حجراً فما بالك بالكائنات الحية ومنها الإنسان؟؟

يروى ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ فى أحداث السنة الثامنة والعشرين بعد الستمائة بعض الصور التى استمع إليها بأذنه من بعض الذين كُتبت لهم نجاة أثناء حملات التتار على المدن الإسلامية فيقول: كان التترى يدخل القرية بمفرده، وبها الجمع الكثير من الناس فيبدأ بقتلهم واحداً تلو الآخر، ولا يتجاسر أحد المسلمين أن يرفع يده نحو الفارس بهجوم أو بدفاع.

وقال أيضاً: "ولقد بلغنى أن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التترى ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح؛ فوضع رأسه على الأرض، ومضى التترى فأحضر سيفاً وقتله به.

وقام هولاكو بغزو ما تبقى من البلاد المجاورة لدولة الخلافة العباسية تمهيداً لإسقاطها واحتلال عاصمتها بغداد وإسقاط دولة الخلافة العباسية وقتل الخليفة العباسى عام ٦٥٦هـ.

بدأ هولاكو عمله سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م بحميّة شديدة وسرعة فائقة، ومع التحلى بالصبر والأناة والإتقان فى كل خطوة؛ فقد ظلّ يُعِدُّ العدة فى صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة من سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وهو يعمل فى نشاط لكى يكون جاهزاً تماماً فأخذ بكل أسباب تحقق النصر فى المعارك الحربية.

فاهتم بالبنية التحتية، وتجهيز مسرح العمليات، وضمان استمرارية وسيولة الإمداد والتموين؛ فقام بإصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، وأقام الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار التى تعترض طريق الجيوش، كما جهّز مجموعة ضخمة من الناقلات العملاقة صنعت خِصّيصاً لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد.

واهتم بعقد تحالف سرى مع وزير الخليفة العباسى الخائن، وهو الشخصية الثانية فى الدولة بعد الخليفة، الوزير «مؤيد الدين العلقمى».

اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمى، مستغلاً فساده واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التى يقدمها للخليفة العباسى المستعصم بالله، وذلك فى مقابل أن يكون له شأن فى (مجلس الحكم) الذى سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة، والتخلص من الخليفة.

وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل وجه وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة الذى كان مستسلماً له ولا يدرك خطورة الموقف وخيانة وزيره الذى أشار عليه من قبل بتسريح الجيش، ولم ينتبه الخليفة ولا قادته إلى تحركات التتار إلا بعدما صارت جيوشهم على مسافة خمسين كيلو متراً من بغداد بعد أن سارت تلك الجيوش آلاف الكيلومترات داخل الأراضى الإسلامية دون أن تتعرض لهجوم وتم الحصار.

وأسقط فى يدى الخليفة، فماذا يفعل وهو لم يعتد تلك المواجهات بعدما أضله الوزير الخائن واستجاب لنصيحة ابن العلقمى بأن يذهب بنفسه لمفاوضة هولاكو؟!

خرج الخليفة للقاء هولاكو الذى اشترط استقدام العلماء والقادة والأئمة والتجار وسائر الأعيان وأبناء الخليفة؛ فجاءوا معاً، فلما أتوا أُخِذوا جميعاً للقتل عدا الخليفة وسبعة عشر من الوفد منهم ابن واحد للخليفة؛ حيث قُتِل له ولدان أمام عينيه، وسيق الخليفة المستعصم مقيداً ليدلّ التتار على أماكن الأموال والذخائر والنفائس فى القصور.

ثم أصدر هولاكو أمره باستباحة بغداد أربعين يوماً كاملة، قتل فيها الرجال، وسبيت النساء واغتُصِبن، وقُتِل الرضع، ونُهبت الأموال، وكان حصاد تلك الاستباحة مليون قتيل، كما حدث أيضاً مع العراقيين، حيث غزتهم أمريكا وبريطانيا حديثاً عام ٢٠٠٣م.

وأمر هولاكو بعد ذلك بقتل الخليفة رفساً بالأقدام؛ لتكون نهايته مهينة كما كانت حياته، وبذلك انتهت دولة الخلافة فى بغداد.

كما أصدر هولاكو قراراً بأن يُعيّن مؤيد الدين العلقمى رئيساً على مجلس الحكم المعين من قِبل التتار على بغداد وكانت القيادة الفعلية للتتار بكل تأكيد، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك، ووصل إلى الإهانة المباشرة للرئيس الجديد مؤيد الدين العلقمى، ولم تكن الإهانة تأتى من قبل هولاكو، بل كانت تأتى من صغار الجند فى جيش التتار، وذلك لتحطيم نفسيته، فلا يشعر بقوته، ويظل تابعاً للمغول الغزاة.

ولم يستطع الوزير الخائن أن يتحمل الوضع الجديد، فبعد أيام من الضيق والكمد، مات ابن العلقمى فى بيته بعد ثلاثة شهور من سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م ولم يستمتع بملك ولا حياة ولا خيانة.

وأشاع سقوط بغداد الخوف فى نفوس الأمراء المسلمين المجاورين مما جعلهم يؤكدون على ولائهم للتتار، وبدأت الوفود الإسلامية الرسمية تتوالى على زعيم التتار تطلب عقد الأحلاف والمعاهدات مع هولاكو.

ومن هؤلاء الحكام الذين نهضوا بالولاء لهولاكو بعد سقوط بغداد الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل - والأمير كيكاوس الثانى، والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول (وسط وغرب تركيا) والأمير الأشرف الأيوبى أمير حمص - والأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبى) أمير حلب ودمشق.

وهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا. وهكذا فتحت بلاد المسلمين أبوابها له دون أن يتكلف قتالاً، ولم يتبق إلا الديار المصرية.

ولكن كان هناك أحد الأمراء الأيوبيين الذى رفض أن يرضخ ويستسلم لهولاكو وهو أمير ميافارقين الملك الكامل محمد الأيوبى.

و(مَيَّافارقِين) مدينة تقع إلى الغرب من بحيرة (وان)، وكانت جيوش الكامل تسيطر على شرق تركيا، إضافة إلى منطقة الجزيرة، وهى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من جهة الشمال.

أى أنه يسيطر على الشمال الغربى من العراق، وعلى الشمال الشرقى من سورية، لذا أصبح إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أمراً ضرورياً.

ومن هنا سيَّر هولاكو جيشاً بقيادة ابنه أشموط لحصار ميافارقين؛ فضرب عليها حصاراً كاملاً، ووقف الكامل محمد وشعبه وقفة المجاهدين، واستبسلوا فى المقاومة، وفى الوقت الذى أرسل فيه الكامل محمد يطلب النجدة من أمراء المسلمين، لم يُجبه منهم أحد، بل كان منهم من يقاتل فى صفوف هولاكو ضده.

وظلّت المدينة مستبسلة مدةَ ثمانية عشر شهراً حتى سقطت، فقتل السفّاح أشموط كل سكانها، وحرّق ديارها، ودمرها تدميراً، ولكنه احتفظ بالأمير الكامل محمد حيّاً ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو فى حصار مدينة حلب.

واستجمع هولاكو كل شره فى الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبى فأمسك به وقيده، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حى، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه حتى مات.

وسقطت حلب بعد ذلك، بعد وعد بأمان زائف؛ فتح الأهالى على إثره أبواب المدينة لهولاكو. ولكنه أبادهم عن بكرة أبيهم.

وبينما كان جيش التتار يستعد للتوجه إلى حماة، جاء إلى هولاكو وفدٌ من أعيان حماة وكبرائها يقدِّمون له مفاتيح المدينة، ويسلمونها له دون قتال، وذلك برغبتهم، ودون طلب من هولاكو.

وقبل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان فى هذه المرة أماناً حقيقيّاً، وذلك ليشّجِع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.

وتقدم المغول نحو دمشق وحاكمها الناصر يوسف الأيوبى الذى أعلن الجهاد ضد التتار عندما طلب منه هولاكو أن يستسلم له استسلاماً كاملاً؛ فخشى على حياته، وأعلن الجهاد، ولكنها كانت دعوة زائفة من رجل اعتاد الخيانة، انتهت تلك الدعوة الزائفة بالفرار عندما جاءت جيوش هولاكو وترك أهل دمشق فى مواجهة هولاكو.

واجتمع أعيان دمشق وكبراؤها، واتفقوا على أن يفعلوا مثلما فعل أهل (حماة)، فيأخذوا مفاتيح المدينة، ويسلموها إلى هولاكو، ثم يطلبوا الأمان منه، ولم يخالف هذا الرأى إلا قلة من المجاهدين قرروا التحصُّن فى قلعة دمشق، والدفاع عنها حتى الموت.

فقد أعطى هولاكو الأمان الحقيقى لأهل حماة؛ ودفع غيرهم من أهل المدن الكبرى لأن يفعلوا مثلهم، فخرج وفد من أعيان دمشق يستقبل جيش هولاكو، ويسلمه مفاتيح المدينة ومقاليد الحكم فى دمشق.

لكن الأخبار جاءت إلى هولاكو تحمل خبر هلاك زعيم المغول منكوخان، جاءت الأخبار بذلك إلى هولاكو قبل أن يصل إلى دمشق؛ فلم يتردد هولاكو فى أن يترك جيشه، ويسرع بالعودة إلى (قراقورم) عاصمة التتار للمشاركة فى عملية اختيار خليفة منكوخان، وترك هولاكو على رأس جيشه أكبر قواده وأعظمهم (كتبغا نوين).

وأسرع هولاكو بالعودة حتى إذا وصل إلى إقليم فارس جاءته الرسل من (قراقورم) بأنه قد تم اختيار أخيه (قوبيلاى) خاقاناً جديداً للتتار، وتبددت أحلامه من زعامة التتار، فعاد هولاكو إلى النطقة التى اقتطعت له ليحكمها ويتمتع بخيراتها ولم يرجع إلى الشام واستقر فى تبريز «بإيران الحالية» وجعلها عاصمة لدولته.

و«تبريز» إضافة إلى حصانتها وجوها المعتدل، فإنها تتوسط المساحات الهائلة التى دخلت تحت حكم هولاكو، فهو يحكم بداية من أقاليم خوارزم التى تضم كازاخستان وتركمستان وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان، ومروراً بإقليم فارس وأذربيجان، وانتهاءً بأرض العراق وتركيا والشام.

وقرر القائد كتبغا أن يحتل فلسطين، فأرسل فرقة من جيشه، فاحتلت نابلس، ثم احتلت غزة، ولم تقترب الجيوش التترية من الإمارات الصليبية الأوروبية المنتشرة فى فلسطين، كما لم يقتربوا من إمارات الصليبيين فى سورية ولبنان، وبذلك قُسمت فلسطين بين التتار والصليبيين.

وبهذا الاحتلال الأخير لفلسطين يكون التتار قد أسقطوا العراق بكامله، وأجزاءً كبيرة من تركيا، وأسقطوا أيضاً سورية بكاملها، وكذلك أسقطوا لبنان، ثم فلسطين.

لقد حققوا كل هذه الانتصارات فى غضون عامين.

ووصل التتار فى فلسطين إلى غزة، وأصبحوا على مسافة تقل عن خمسة وثلاثين كيلو متراً فقط من الحدود المصرية، وقد أرسل هولاكو قبل سفره إنذارات تهديد إلى حاكم مصر السلطان قطز.

▪ ▪ ▪

4

المواجهة المحتومة والمصيرية

- ترتيب الوضع الداخلى بمصر لمواجهة المغول.
- رسالة هولاكو لقطز وإعلان قطز الحرب على المغول.

ترتيب الوضع الداخلى لمواجهة المغول

لقد واجهت الدول الإسلامية والعربية الخطر المغولى منفردة، والذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، (البعيدة عن القطيع) ولو أن تلك الدول اتحدت فى مواجهة العدو لما استطاع هزيمتها وقتل شعوبها التى قهرها الحكام قبل المغول، فالشعوب دائماً هى التى تدفع الثمن، والشعوب الإسلامية فى ذلك الزمان كانت مستضعفة، والحكام ومن يجلس على كرسى الحكم تشكيلة مختلفة من جنسيات وأعراق لا تنتمى لتلك الشعوب.

ولهذا كان على السلطان قطز ـ الذى حين اعتلى عرش السلطنة أعلن أنه جاء ليقود هذه الأمة دفاعاً عن الإسلام ثم بعد القتال يختارون ما يشاؤون للحكم ـ اختيار الأصوب فى الموقف الصعب، فقد رأى أن استمرار الوضع الشاذ من وجود سلطان صغير قرابة ثلاث سنوات خطر يهدد البلاد والإسلام.

فقد حمل قطز هم الأمة الإسلامية حيث إنه لم يبق منها سوى مصر، فإن دمرها المغول قضى الأمر، أما باقى الأمراء المماليك فكانوا يتنازعون من أجل دنيا فانية وسلطان زائل، ولهذا كان خطابه لهم حين اعترضوا على عزله للسلطان الطفل الذى كان يلعب طوال الوقت بالحمام ومع الأراذل ولا يدرى أى شىء عن أمور الدولة والحكم وخطر التتار، فقد قال لهم: إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا فى السلطة من شئتم».

لقد كان الوضع فى غاية الخطورة حين اعتلى قطز العرش، فقد جلس

على كرسى حكم فى مصر خلال عشرة أعوام تقريباً ستة حكام وهم: الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولده توران شاه، شجرة الدر، والملك المعز عز الدين أيبك والسلطان نور الدين على بن أيبك وسيف الدين قطز، كما كان هناك الكثير من المماليك الطامعين فى الحكم ويقومون بالتنازع عليه.

كما كان هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، ومن جراء الحروب التى دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلى، فعمل قطز على إصلاح الوضع فى مصر خلال إعداده للقاء التتار.

وعمل قطز على توحيد صفوف المماليك البحرية والمعزية وحاول الاتحاد مع الملوك الأيوبيين أيضاً، فقد كان هناك خلاف كبير بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، عندما قتل سيف الدين قطز بالتدبير مع السلطان المعز ومن ورائه زوجته، قتل فارس الدين أقطاى أتابك الدولة (وزير الحرب) ووالى الإسكندرية، وزعيم المماليك البحرية سنة ٦٥٢هـ، الأمر الذى جعل الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى يفر إلى الشام مقتنعاً بأنه كان الهدف التالى لمؤامرة شجر الدر مع زوجها السلطان المعز ونائبه قطز ثم بدأ الخلاف يتفاقم تدريجيّاً إلى أن وصل إلى الذروة بعد مقتل المعز عز الدين أيبك بواسطة شجرة الدر التى دفعتها الغيرة الزوجية لذلك.

ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم القائد ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر مثلما فعل بيبرس مع ملك دمشق الناصر يوسف وملك الكرك والشوبك المغيث عمر، فلما اعتلى قطز عرش مصر قبل الصلح مع بيبرس الذى أرسل الرسل لقطز كى يتحدا للتصدى لجيوش المغول التى كانت قد دخلت دمشق.

استقبل قطز المماليك الفارين استقبالاً لائقاً، كما استقدم ركن الدين بيبرس، فلما قدم بيبرس إلى مصر، عظّم قطز من شأنه جداً، وأنزله دار الوزارة، وأقطعه «قليوب» وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدّمين، بل وجعله على مقدمة الجيوش فى معركة عين جالوت.

وكانت العلاقات مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جداً، وقد فكروا أكثر من مرة فى غزو مصر، ونقضوا الحلف الذى كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، بل إن الناصر يوسف الأيوبى أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه فى غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، فيخلون بينه وبين التتار دون أن يتعاونوا مع التتار ضده.

فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبى يعرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبى هو ملك مصر والشام، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبى فى نية قطز فيستطيع قطز أن يمده بالقوات للمساعدة فى قتال التتار، كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصرى الذى يذهب لنجدته فى الشام.

ولكن الناصر الأيوبى رفض ذلك فسقطت كل من حلب ودمشق فى يد التتار وفر الملك الناصر الأيوبى إلى فلسطين. بعد فرار الناصر الأيوبى انضم إلى قطز جيش الناصر، فازدادت بذلك قوة الجيش المصرى.

راسل قطز بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير «المنصور» صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز فى مصر.

أما المغيث عمر صاحب الكرك، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقد فضلا الحلف مع المغول والخيانة.

وأما الأخير وهو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار ليساعدهم فى محاربة المسلمين.

وواجه قطز المشكلة الاقتصادية الطاحنة بأن اقترح أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية، لأن المسلمين فى دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا فى ظروف خاصة جداً، ولابد من وجود سند شرعى يبيح ذلك.

فاستفتى قطز الشيخ العز بن عبد السلام فأفتى قائلاً:

«إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شىء وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا فى ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا».

قبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش كله.

▪ ▪ ▪

رسالة هولاكو لقطز

قبل أن يترك هولاكو الشام بعد علمه بوفاة أخيه ملك المغول أرسل إلى قطز رسالة تهديد جاء فيها: ـ

«بسم إله السماء الواجب حقه، الذى ملَّكنا أرضه، وسلَّطنا على خلقه.. الذى يعلم به الملك المظفر الذى هو من جنس «المماليك».. صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها.. إنّا جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غيظه.. فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر.. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم.. قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ.. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى.. فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد.. فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب.. فأى أرض تؤويكم؟ وأى بلاد تحميكم؟ وأى ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟

فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال.

فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشى فيكم العقوق والعصيان.

فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون).. وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة[1]

---

(١) كان مع هولاكو علماء من المسلمين صاحبوه فى حروبه، وكانوا يكتبون له الخطابات، انظر كتابنا هولاكو مارد من الشرق، الناشر دار الكتاب العربى.

وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة.. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل.. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا رد الجواب.. قبل أن تضرم الحرب نارها، وتورى شرارها.. فلا تجدون منا جاهاً ولا عزّاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذا أزّتكم رماحنا أزاً.

وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية.. فقد أنصفناكم، إذا أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم».

جمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأى بعض القادة الاستسلام للتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلا أن قال: «أنا ألقى التتار بنفسى.. يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين (عن القتال)»، فتحمس القواد والأمراء لرؤيتهم قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً ويبقى هو.

ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكى ويقول:

«يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن».

فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

ومما جاء أيضاً فى رسالة هولاكو لقطز وذكره رشيد الدين فضل الله الهمذانى فى جامع التواريخ:

«إن الله قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا ويعصى أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه

وأقاربه والمتصلين به، وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع.

أما جيشنا الذى لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار، فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك واطلب الشحنة، وإلا فكن مستعداً للقتال».

ولما وصلت رسالة هولاكو للسلطان قطز مع رسل المغول استدعى قطز الأمراء وقادة الجيش وأعيان البلد وقرأ عليهم الرسالة ثم قال لهم: لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته، واستولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نعى أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى، ومع هذا ترك فى هذه النواحى كيتو بوقا الذى هو كالأسد الهصور، والتنين القوى فى الكمين، وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته، فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة[١].

فقال له الأمير ناصر الدين قميرى:

ـ إن هولاكو خان، فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان وابن تولوى وأخو منكو خان فإن شهرته وهيبته فى غنى عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن، وقد اختص بالتأييد السماوى، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل، إنه ليس بالإنسان الذى يُطمأن إليه، فهو لا يتورع عن اجتزاز الرؤوس، وهو لا يفى بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين وصاحب أربيل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل[٢].

(١) جامع التواريخ ـ رشيد الدين الهمذانى.

(٢) المصدر السابق.

فرد عليه قطز: ـ

ـ والحالة هذه فإن كافة بلاد داير بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبذور، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تامّاً كغيرها من البلاد.

وينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة: ـ

ـ الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن.

أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مقراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة[١].

فقال له ناصر الدين قميرى:

ـ وليس لنا مصلحة أيضاً فى مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعهودهم.

أما سائر الأمراء القادة فقالوا:

ـ ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك.

فقال لهم قطز بكل حزم وإصرار: ـ

ـ إن الرأى عندى هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الشعب.

وبعد هذا الاجتماع واتخاذ القرار الصائب الحازم اختلى قطز بالأمير الظاهر بيبرس وقد عينه أمير الأمراء وشاوره فى الأمر.

فقال له بيبرس: إنى أرى أن نقتل الرسل، ونقصد «كيتو بوقا» متضامنين، فإذا انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتا الحالتين معذورين[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وبعد الاجتماع أمر قطز بقتل رسل المغول وصلبهم على باب زويلة، وكان عدد الرسل خمسة وعشرين رجلاً، فقتل منهم أربعة وعشرون وأبقى واحد منهم ليحمل رؤوس الباقين إلى هولاكو وأرسل الرسل فى الديار المصرية تنادى بالخروج للجهاد فى سبيل الله ووجوبه وبيان فضله وكان العز بن عبد السلام ينادى فى الناس بنفسه ويقرأ عليهم الآيات من سورتى «التوبة» و«الأنفال» وفيهما آيات كثيرة تحث على الجهاد، فهب نفر كثير من الشعب للجهاد وقد حملوا ما استطاعوا من سلاح وعتاد وانضموا إلى جيش المماليك فكانوا قلب وميسرة جيش المسلمين، وأما القوات النظامية من المماليك فكونت الميمنة من الجيش.

ولما حانت ساعة الخروج للجهاد نكص بعض الأمراء على أعقابهم وأبدوا خنوعاً واستسلاماً وخوفاً من التتار فقام فيهم قطز خطيباً: ـ

ـ يا أمراء المسلمين لكم تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد لصحبنى ومن لم يختر يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين.

وتقدمت طلائع الجيش بقيادة الظاهر بيبرس فى نصف شعبان عام ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م وذلك لجمع المعلومات عن تجمعات العدو خارج الحدود المصرية وكانت طلائع العدو بغزة فأرسلت إلى قائد المغول تخبره بخروج الجيش المصرى لقتالهم.

وكانت بوادر النصر أن اشتبك بيبرس مع طلائع المغول فألحق بهم هزيمة منكرة وأجبرهم على الانسحاب من غزة حتى نهر العاص وفى هذه الأثناء وصل الجيش بقيادة قطز إلى عكا.

فقد فوجئت الحامية المغولية التتارية التى كانت محتلة لغزة بطليعة الجيش المصرى الإسلامى داخل حدود فلسطين وقد اجتازوا رفح وخان يونس

ودير البلح، فكانت المفاجأة أحد أسباب النصر وإلحاق الهزيمة بالمغول.

وأصبح المغول أمام مقاومة جديدة لهم، حيث طائفة من المسلمين قد خرجت تحمل السلاح ولا تهاب قوة المغول الباطشة بعد أن شاهدوا المسلمين فى السنوات السابقة تفر من أمامهم فى الشام والعراق.

وعاد من نجا من القتال منهم إلى قائد المغول كتبغا الذى كان يعسكر بجيشه الذى تجاوز العشرة آلاف مقاتل شرس فى سهل البقاع، كى يلتقى الفريقان على أرض عين جالوت، فقد كان انتصار المسلمين فى غزة بشرى خير ومقدمة لما هو أكبر فى عين جالوت.



مملكة التتار سنة ٦٢٩هـ



غزو التتار للشام



دول وإمارات العالم الإسلامى فى القرن التاسع الهجرى

6

الهزيمة الساحقة للمغول فى عين جالوت

- الطريق إلى عين جالوت وتحقيق النصر على المغول.
- وإسلاماه.. اللهم انصر عبدك قطز.

الطريق إلى عين جالوت ومبشرات النصر وتحققه

كانت البداية المبشرة بالنصر لقطز وتأكده من تحقق نصر الله على المغول حين مكنه الله من الجلوس على عرش الديار المصرية، فبهذا تحققت نصف الرؤيا التى رآها وهو ما زال فى فترة الرق والعبودية حين بشَّره رسول الله ﷺ بحكم مصر والنصر على المغول وكان قطز يحدِّث أصحابه بتلك الرؤيا فيقول لهم: رأيت النبى ﷺ فى المنام وقال لى: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبى ﷺ حق لا شك فيه[1].

وقد ذكر قطز تلك الرؤيا لأحد زملائه من المماليك قبل قدومه مصر ووعده بأن يكون وقتها أحد قادة جيشه.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تلك القصة فى البداية والنهاية فقال: حكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل على المرآة عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر فى أيام الناصر صاحب دمشق، قال: لما كنا مع الناصر بوطاه برزه جاءت البريدية - أى رسائل البريد - تخبر أن قطز قد تولى الملك بمصر، فقرأت ذلك على السلطان، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهما بهذا.

وقال: فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد.

فقال لى: جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد ملك؟

فقلت: ما عندى من هذا علم وما يدريك أنت بهذا؟

(١) انظر التاريخ الإسلامى مواقف وعبر - د. عبد العزيز الحميدى والبداية والنهاية لابن كثير.

فقال: بلى والله سِملك المملكة ويكسر التتار.

فقلت: من أين تعلم هذا؟

فقال: كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه وأذمه، فقال لى يوماً: ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟

فقلت له: أنت مجنون؟

فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه؟

فقلت له حينئذ ـ وكان صادقاً ـ أريد منك إمرة خمسين فارساً.

فقال: نعم أبشر.

قال ابن الأثير: فلما قال لى هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال: والله ليكسرنَّ التتار، وكان كذلك، ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها ورجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكى ـ الراوى ـ فى جملة من دخلها، فأعطاه المظفر قطز إمرة خمسين فارساً ووفى له بالوعد وهو الأمير جمال الدين التركمانى.

قال ابن الأثير: فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن المظفر قطز، فذكرته ثم كانت واقعة التتار على إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد، وقد روى عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفىء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس فى صلاتهم.

هكذا أرادها قطز ملحمة شعبية عسكرية إيمانية، أى أنه أخذ بكل أسباب النجاح والنصر.

فقد كانت بداية النصر الكبير فى موقعة غزة التى أشرنا إليها؟

بعض المؤرخين يبسطون جداً من شأن معركة غزة، حتى يتغافلها بعضهم تماماً، والحق أنها كانت من أهم المواقع الحربية فى تاريخ المسلمين، ليس لكثرة قتلى التتار، ولا لأهمية غزة الاستراتيجية ولا لغير ذلك، إنما فى الأساس لأنها عالجت الهزيمة النفسية عند المسلمين.

لقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرون، وسقطت المقولة التى انتشرت فى تلك الآونة، التى كانت تقول: «من قال لك إن التتار يهزمون فلا تصدقه».

وهذا ما فعله اليهود فى نفوس العرب والمسلمين بعد هزيمة ١٩٦٧ حين أشاعوا أن جيش اليهود لا ينهزم.

لقد كان لموقعة غزة أثر إيجابى هائل على جيش المسلمين، وكان لها أيضاً أثر سلبى هائل على جيش التتار، فالنصر يأتى بالنصر.

والانتصارات المرحلية البسيطة ـ وإن كانت عسكرياً لا تمثل الكثير ـ إلا أنها تفيد فى رفع الروح المعنوية للأمة وهذا ما رآه جيش الإسلام يتحقق فى عين جالوت.

حيث اتجه الجيش المسلم بعد انتصار غزة إلى ناحية الشمال وهم يسيرون بحذاء ساحل البحر الأبيض المتوسط ليمرّوا على المدن الإسلامية العظيمة الواحدة تلو الأخرى، فمرّوا على عسقلان ثم على يافا، ثم أكمل قطز والجيش المسلم طريقه فى اتجاه الشمال، فمرّ فى غرب طولكرم، ثم وصل إلى مدينة حيفا، ثم اتجه شمالاً بعدها إلى عكا المدينة المسلمة المحتلة من قبل الصليبيين.

وعسكر قطز رحمه الله فى الحدائق المحيطة بحصن عكا فى السهل الواقع فى شرق عكا، ثم بدأت المراسلات بين قطز رحمه الله وأمراء عكا

الصليبيين للتأكيد على الاتفاقيات السابقة، وأرسل قطز رحمه الله وفداً من الأمراء المسلمين، فدخلوا حصن عكا، وأحسن الأمراء الصليبيون استقبال المسلمين، وأكد الطرفان على ما سبق الاتفاق عليه، وتكررت الزيارات أكثر من مرة، واطمأن الطرفان على استقرار الوضع، ومن ثم عزم قطز على الرحيل من عكا واختيار مكان مناسب للقاء الهام المرتقب بينه وبين التتار.

وعندما بدأ قطز رحمه الله فى مغادرة منطقة عكا أشار عليه أحد الأمراء الذين قاموا بالسفارة بينه وبين الأمراء الصليبيين أن عكا الآن فى أشد حالات ضعفها، وأنهم مطمئنون إلى المعاهدة الإسلامية، وغير جاهزين للقتال، فإذا انقلب عليهم قطز فجأة فقد يتمكن من إسقاط حصن عكا، وتحرر المدينة الإسلامية بعد مائة وست وستين سنة من الاحتلال، فرد عليه قطز رحمه الله رداً قاطعاً صارماً واضحاً.. قال: نحن لا نخون العهود.

تلك أخلاق الإسلام والتى زرعها فى نفوس أتباعه، وهذه قيادة تأخذ بأسباب النصر الحقيقية، ومن أسباب النصر الحقيقية اتباع شروط الله عز وجل فى كل صغيرة وكبيرة، حفظ العقود وعدم نقض المواثيق من صميم شرع الله عز وجل، وتحقق فيهم قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (سورة المائدة: ١). فلا مكان للغدر فى العهود.

هذا هو دين الإسلام، وهذا هو شرع الإسلام، وهذه هى قوانين الإسلام، وهؤلاء هم قادة الإسلام الحقيقيون.

وهكذا ترك قطز رحمه الله عكا، واتجه إلى الجنوب الشرقى منها ليبحث عن مكان يصلح للمعركة القادمة، وفى هذه الأثناء كان كتبغا قد وصلته فلول جيش التتار الفارة من غزة ينقلون إليه تحركات الجيش المسلم،

فغضب كتبغا غضباً شديداً لهزيمة حاميته العسكرية فى غزة، وغضب أكثر لأن هناك من المسلمين من يتجمع لقتاله، وكأنّ الأصل أن المسلمين ليس لهم حق المقاومة، فإن قاوموا عدوهم كان هذا داعياً لغضب كتبغا والتتار.

وعقد كتبغا اجتماعاً استشارياً مع قادته، وحضر هذا الاجتماع الأشرف الأيوبى أمير حمص، واتخذ كتبغا قراره فى هذا الاجتماع أن يتوجه بسرعة لحرب هؤلاء المسلمين.

وكان واضحاً أن حركة التتار فى اتجاه المسلمين كانت بطيئة جداً، لأن قطز قطع معظم الساحل الفلسطينى من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله دون أن يدخل التتار حدود فلسطين أصلاً، مع أن المسافة بين سهل البقاع اللبنانى ـ حيث يعسكر جيش التتار ـ والحدود اللبنانية الفلسطينية لا تزيد على مائة كيلو متر.

وحدد قطز المكان المناسب للمعركة، وبذلك يسجل نقطة هامة لصالحه، ويستطيع أن يرتب جيوشه فى وضع أفضل، ويختبر المنطقة ويعلم طبيعتها وخباياها قبل وصول المغول.

وتحرك كتبغا فى اتجاه الجنوب بين جبال لبنان حتى دخل فلسطين من شمالها الشرقى غرب مرتفعات الجولان، ثم عبر نهر الأردن، ووصل إلى الجليل الشرقى، واكتشفت الاستطلاعات الإسلامية المنتشرة فى المنطقة تحركات كتبغا، ونقلت الأخبار بسرعة إلى قطز الذى كان قد غادر عكا فى اتجاه الجنوب الشرقى، فأسرع قطز باجتياز مدينة الناصرة، وتعمق أكثر فى الجنوب الشرقى حتى وصل إلى منطقة تعرف بسهل عين جالوت، وهى تقع فى الوسط تقريباً بين مدينتى بيسان فى الشمال ونابلس فى الجنوب، وهى بالقرب جداً من معسكر جنين الآن.

ويقع سهل عين جالوت على مسافة ٦٥ كيلو متراً جنوب منطقة حطين التى دارت فيها الموقعة الخالدة حطين فى سنة ٥٨٣هـ قبل خمسة وسبعين

سنة من موقعة عين جالوت، ويقع كذلك على مسافة حوالى ستين كيلو متراً إلى الغرب من منطقة اليرموك حيث دارت المعركة الخالدة بقيادة خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما ضد الروم منذ أكثر من ستة قرون(١).

---

(١) ولأن أرض عين جالوت فى أرض فلسطين التى تقع تحت الاحتلال الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٨م، ١٩٦٧م فأسماء المدن قد تغيرت بأسماء عبرية ولهذا نضع وصفا حديثا لأرض المعركة..

تقع عين جالوت (معيان حارود) عند أسفل سفح جبل القليلة (كتيف شاؤول) من سلسلة جبال فقوعة (جلبوع) من الجهة الشمالية الغربية فى مرج بيسان، وسلسلة جبال فقوعة تضم خمسة جبال: جبل المزار، جبل القليلة، جبل الشيخ برقان، جبل الشيخ عجمى، جبل أم غنمه، وهى سلسلة على شكل هلال من الغرب إلى الجنوب.

وفى حضن الهلال تقع قرية «فقوعة» أما مرج بيسان حيث وقعت أحداث المعركة فيبدأ من الغرب عند موقع قرية زرعين المهجرة وبين جبل الدحى ويمتد شرقاً بين جبال فقوعة جنوباً وهضبة مراح الغزلان (رمات تسفائيم) شمالا لينتهى بمدينة بيسان عند طرف غور الأردن وهى المنطقة الوحيدة المفتوحة على طول الغور من الشمال إلى الجنوب لذا أطلق عليها العرب اسم لسان الأرض.

ولا ننسى أن مدينة بيسان قد ذكرت فى حديث الجساسة الذى روى فى الصحيح وهو حديث هام يتحدث عن المسيح الدجال ومقدمات خروجه آخر الزمان.

ولمشاهدة موقع المعركة حالياً علينا الوصول إلى مفرق زرعين (تسومت يزراعيل) للقادمين على طريق رقم ٦٧٥ من الغرب أو الشمال أو الجنوب والاتجاه شرقاً حتى الوصول بجانب موقع قرية زرعين بحيث تكون على يسارنا وهنا يمكن زيارة موقع القرية والاستراحة هناك بحيث نطل على موقع عين جالوت فهى تبعد مئات الأمتار بخط جوى باتجاه الشرق. وأيضاً يمكن زيارة عين الميتة أسفل التل توجد لافتة تشير إلى مسار هذه النبعة التى كانت تزود قرية زرعين بالماء.

وبالصعود إلى جبال فقوعة أمام استراحة تل زرعين باتجاه الجنوب توجد طريق رقم ٦٦٧ (معلى جلبواع) والتى تتفرع من الطريق التى تصل لبيسان لنصل جبل القليلة (كتيف شاؤول) فى الطريق نمر بموقع قرية نورس ثم نصل بداية الجبل الأول جبل المزار والذى أطلق عليه هذا الاسم نسبة لقرية المزار.

فعلى جانبى الطريق تشاهدون أشجار الزيتون، الرمان، اللوز، التين ومغارة صغيرة عن يمين الطريق أما سبب تسمية القرية فيقال إن بها دفن شهداء معركة عين جالوت فصار الموقع مزارا لأهل المنطقة واستقر فيه بعض الناس فيما بعد من قبيلة بنى سعد. =

وجد قطز رحمه الله سهل عين جالوت منطقة مناسبة جداً للمعركة المرتقبة، فهو عبارة عن سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه إلا الجانب الشمالى فهو مفتوح، كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأ مناسباً جداً للجيش الإسلامى، فيسهل عمل الكمائن الكثيرة على جوانب السهل المنبسط.

ورتب قطز جيشه بسرعة فوضع على ناحية السهل الشمالى مقدمة جيشه بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعلها فى مكان ظاهر حتى يغرى جيش التتار بالقدوم إليها، بينما أخفى قطز رحمه الله بقية الجيش خلف التلال والأحراش.

كان هذا الترتيب والإعداد فى ٢٤ رمضان من سنة ٦٥٨هـ فى العشر الأواخر من شهر رمضان الكريم، وهو الشهر الذى حدثت فيه الانتصارات الإسلامية الخالدة قبل ذلك مثل بدر وفتح مكة وفتح الأندلس وتلاه نصر أكتوبر.

وانتظر المسلمون على تعبئة وعيونهم الاستخبارية تنقل أخبار كتبغا وجيش التتار، وقد اقتربوا جداً من سهل عين جالوت.. انتظاراً للقاء المرتقب.

■ ■ ■

= وبالصعود إلى الطريق الملتوى لنصل مفرق طرق مع لافتة (كتيف شاؤول) «القليلة» إلى اليسار حيث موقف للسيارات وإلى الشمال من الموقف من جهة اليسار توجد طريق لمسار قصير ودائرى نحو ٤٠٠م ندخل المسار بين أشجار الصنوبر لنصل لمطل جميل نجلس هناك فترة من الزمن لنشاهد المناظر الخلابة ونطل على مرج بيسان أسفل الجبل ثم جبل الدحى (حيث قبر الصحابى الجليل دحية الكلبى) إلى الشمال الغربى ومن خلفه من جهة اليمين جبل الطور وجبال الناصرة إلى الجليل الأعلى، ومن جهة الشمال هضبة مراح الغزلان وفيها قرى الزعبية الناعورة وطمرة الزعبية والطيبة الزعبية، وهناك يوجد سجن شطة نسبة لقرية شطة المهجرة المشهورة لصناعة المخللات ومكانها اليوم مستوطنة بيت هشيطا وخلفها هضبة كوكب الهوى وفوقها قلعة كوكب الهوى وهذا وصف بسيط لأرض المعركة حالياً.

وا إســـلاماه..
اللهم انصر عبدك قطز

نجح قطز فى جر «كيتو بوقا» وجيشه المغولى إلى أرض عين جالوت، وقد اعتمد القائد المغولى على سمعة جيشه الذى لا يقهر كما أشاعوا، وقرعت طبول الحرب ونفخت الأبواق وعلا النفير وذلك فى منتصف شهر رمضان عام ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م.

ووضع قطز خطته الحربية على نحو ما كان يفعل الجيش المغولى التترى فى كل حروبه منذ أن خرج بهم جنكيز خان لغزو بلاد العالم.

لقد أدرك قطز منذ البداية أن المغول قد حققوا انتصاراتهم فى المعارك بفرض ما يعرف بالقتال السريع المعتمد على خفة الحركة للفرسان وهى الحركة الخاطفة التى يتميز بها فرسان المغول، فكان لازماً اتخاذ وفرض طريقة القتال الثابت الذى يتميز به المماليك وغيرهم وهو القتال العادى الذى يعرفه المقاتلون القدماء بالمبارزة.

ووضع قطز خطته الحربية على خداع المغول، فكانت تلك الخطة بداية إيهام المغول بأن جيشه لن يغير من طريقته التقليدية للجيوش الإسلامية التى عرفها المغول فى المعارك التى استطاعوا فيها سحق الجيوش الإسلامية.

فقد وضع قطز القوة الرئيسية لجيشه بقيادة الظاهر بيبرس فى كمين وراء التلال وأظهر فرقاً من الفرسان فى المواجهة كى تنهزم أمام جيش المغول وتفر من أمامه كى تجره إلى أرض المعركة التى أرادها قطز فيخرج له الجيش المختبئ (الكمين) فيقضى عنصر المفاجأة على المغول التتار.

فهو يريد أن يجر التتار المغول على القتال المتلاحم المباشر فيوقف تحركاتهم السريعة التى يتميز بها التتار فتشيع الفوضى فى صفوفهم فيندفع فرسان المماليك من الخلف بقوة فى تلك الصفوف المضطربة كالسكين فى قالب الزبدة.

وكانت باقية الخطة وهى الخطوة الهامة للقضاء على الجيش المغولى وهى من جنس فعل المغول أنفسهم فى حروبهم، وقد عرفوا بها فى حروبهم وهى التظاهر بالتقهقر وإيهام عدوهم بالانسحاب من أرض المعركة وترك ثغرة فى الجيش تخفف الضغط على المشاة من الجنود كى يندفع الفرسان من العدو كى يندفعوا بقوة منها وفى الوقت المناسب تعطى الإشارة بالانقضاض عليهم فيكون النصر.

وفى اليوم الموعود يوم الله القادر على تحقيق النصر لعباده المؤمنين، وفى الساعة المحددة كان اللقاء ونزلت سحائب النصر صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ من شهر رمضان المبارك عام ٦٥٨هـ ١٣ من شهر سبتمبر عام ١٢٦٠م، ودارت رحى الحرب.

كانت الحرب فى بدايتها كما خطط لها قطز، حرب ضارية شرسة، هجوم عنيف من فرسان المغول كالمعتاد اصطدموا فيه بمشاة جيش الإسلام، فخفف ذلك من عنف الهجوم وسرعته وحركة الخيول حتى التجأ فرسان المغول إلى القتال المتلاحم المباشر الذى يألفه المسلمون والمماليك.

أخرج المغول كل ما لديهم من قوة وإمكانيات حتى ظن من يتابع سير المعركة أن التفوق سار إلى جانبهم وهذا ما أراده قطز وخطط له، تفوقت الميمنة المغولية وضغطت على الميسرة الإسلامية المصرية.

وجاء تنفيذ الخطوة الثانية من الخطة بعد أن أظهرت قوات المشاة المصرية أنها انهزمت وقامت بالفرار المنظم المحسوب من أرض المعركة، حسب الخطة وتركوا ثغرة كى ينطلق فرسان المغول منها، وكما يقولون أكلت

الفريسة الطعم، اندفع فرسان المغول مثل البخار المضغوط من الإناء لمطاردة فلول الفارين الذين أسلموهم بدورهم إلى الكمين الذى أعد لهم بقيادة بيبرس.

وكان قطز يقف فوق تلة صغيرة يراقب سير المعركة، فنزل منها مسرعاً وألقى بخوذته على الأرض ليعلن للجنود عدم خوفه وطلبه للشهادة فى سبيل الله وصرخ بأعلى صوته:

ـ واإسلاماه.

صيحة تقشعر منها الجلود.. جلود الذين آمنوا..

ـ واإسلاماه.

لقد كانت لحظة النصر.. يا جنود الله.. انطلقوا..

لقد صرخ قطز البطل بأعلى صوته ومن أعماق قلبه:

ـ واإسلاماه، اللهم انصر عبدك قطز على التتار.

وانطلق ومن ورائه الفرسان والجنود الأبطال، جنود الإسلام الذين يعشقون الموت والشهادة فى سبيل الله، فلتسقط المغول وكل أعداء الإسلام.

وفى نفس الوقت انشق فرسان الكمين الذى يقوده الظاهر بيبرس من ثلاث جهات، انقضوا على المغول كالصاعقة الماحقة المدمرة أفقدت جيش المغول اتزانه وقوته، فلم يفق إلا وقد انتهى أمره وانهزموا هزيمة منكرة ولم تستمر تلك المعركة إلا من صباح يومها حتى منتصف نهارها.

لقد حوصر جيش المغول وأعمل فيها الجيش المصرى القتل حتى إن قائد المغول كيتو بوقا أصابه الجنون فأصبح لا يدرى ما يفعل.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية أن قطز يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحدا من الوشاقية الذين معهم الجنائب ـ

الخيول الاحتياطية ـ فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك.

ولم يزل كذلك يقاتل مترجلاً حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك.

فقال له قطز: أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عدَّ خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام فلم يضيعه.

وكانت المعركة يوم الجمعة من رمضان كما كانت معركة بدر الكبرى يوم الجمعة من رمضان أيضاً وكان فيها النصر وكانت معركة فاصلة بين الحق والباطل ونصراً للإسلام وأهله[1].

نعود إلى قائد المغول «كتبغا» الذى جنَّ جنونه، وصار يضرب بسيفه الهواء يميناً وشمالاً، فاجتمع لديه عدد من القادة المغول وأشاروا عليه بالهرب فقد انتهت المعركة بهزيمة المغول، فقال لهم:

ـ لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان، وسيصل رجل واحد صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ـ هولاكو ـ ويعرض عليه كلامى قائلا: إن كيتو بوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية فى سبيل الواجب، ينبغى ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور، فليدم إقبال الملك مادامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير[2].

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير..

(٢) انظر جامع التواريخ ـ رشيد الدين الهمذانى.

وتم أسر «كيتو بوقا» وحمل مكبلاً بالقيود ذليلاً إلى القائد المنتصر السلطان قطز فقال له:

- أيها الرجل الناكث العهد، ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة، وهدمت البيوت قد وقعت أخيراً فى الشرك.

فقال له كيتو بوقا «كتبغا»: -

- أيها الرجل الفخور المغتر لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا، فأنا إذا قتلت على يدك فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغزو العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتى، سوف يغلى بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول من آذربيجان حتى ديار مصر، وستحمل رمال مصر فى مخالى خيولهم إلى هناك، إن لهولاكو ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتو بوقا، فافرض أنه نقص واحد منهم[1].

لقد أراد القائد المغولى وهو مدرك أنه مقتول لا محالة تهوين النصر الذى حققه المسلمون، وتخويف قطز ومن معه من بطش هولاكو بهم وهى الحرب النفسية، التى برع المغول فيها، إلا أن محاولاته كانت فاشلة ولم يأبه بها قطز ومن معه، وكان ذلك واضحاً فى رد قطز عليه: -

- لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة.

وبعد هذا الحوار الموجز أمر السلطان قطز بضرب عنق سفاك الدماء كيتو بوقا، فقتل[2].

وقال ابن كثير إنه - أى «كتبغا» قتل فى المعركة وعثر على جثته.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وقيل إن الذى قتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسى ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية وقال عنه: إنه من أكابر قواد هولاكو وفتح له بلادا كثيرة من بلاد العجم إلى الشام، وقد =

وقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن ابن كيتو بوقا «أو كتبغا نوين» قد أُسر وأحضر إلى السلطان قطز فقال له المظفر قطز: أهرب أبوك؟

قال: إنه لا يهرب.

فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه صرخ وبكى فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ثم قال: أنام طيباً، كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم.

وقد ذكر الهمذانى فى تاريخه أن «كتبغا» قد أُسر كما ذكرنا وأمر قطز بقتله.

= أدرك جنكيز خان، وكان كيتو بوقا أو «كتبغا» يعتمد فى حروبه للمسلمين بأشياء لم يسبقه إليها أحد، فكان إذا فتح بلدا ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذى يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده من تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذى فتحه قبل ذلك فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى فنى تلك المقاتلة، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وجنوده وتعب أهل البلد ولضعفهم حتى يفتحهم سريعاً.

وكان يسمم آبار البلاد بخدعة يعملها فيهلك الناس ولهذا قال له قطز حين وقع أسيراً: لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة.

فقد كان هذا الخادع الخبيث يبعث إلى أهل الحصن الذى يحاصره يقول لهم: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم ونسبى نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم.

فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً.

فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء.

فيقول: لا أصدق حتى أبعث من عندى من يشرف عليه فإن كان كثيرا انصرفت عنكم.

فيقولون: ابعث من يشرف عليه.

فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سمّاً، فإذا دخلوا الحصن وضعوا السم التى فى رماحهم المجوفة فى آبار المياه دون أن يعرف أهل الحصن، ثم ينصرفوا، فإذا شرب أهل الحصن من الماء ماتوا، فيكون هلاكهم وهم لا يشعرون، فيدخل المغول الحصن بلا قتال.

وكان كيتو بوقا «كتبغا» حين وقع فى الأسر يوم عين جالوت وقتل شيخاً كبيراً يميل إلى دين النصارى ويتبعه، وقد مكن النصارى فى بلاد الشام من المسلمين وهدم المساجد لعنه الله.

وقتل فى عين جالوت معظم قادة المغول، وقد قاتل الملك المنصور ملك حماة مع السلطان قطز قتالاً شديداً وقد كان مع جيش المغول أول المعركة.

وكان الملك السعيد بن عبد العزيز العادل مع جيش المغول وأسر فأمر قطز بضرب عنقه، واستأمن الأشرف ملك حمص وكان مع جيش التتار وقد جعله هولاكو نائباً له على الشام بعد أن استسلم له فأمنه المظفر قطز ورد عليه حمص.

وتتبع الظاهر بيبرس وجيش المسلمين المغول فى بلاد الشام يقتلونهم بعد أن هربوا من المعركة حتى وصلوا خلفهم إلى مدينة حلب، ثم دمشق، وقتل الأهالى كل من تعاون مع التتار المغول أثناء حكمه لبلاد الشام من المسلمين والنصارى منهم الفخر محمد بن يوسف محمد الكنجى.

والعجيب أنه لما وصلت أخبار هزيمة الجيش المغولى إلى هولاكو ومقتل قائده أنه لم يقم بالانتقام ورضى بما حققه من انتصارات سابقة ومال إلى حكم تلك البلاد والاستمتاع والراحة وقد دب الخلاف بين زعماء المغول.

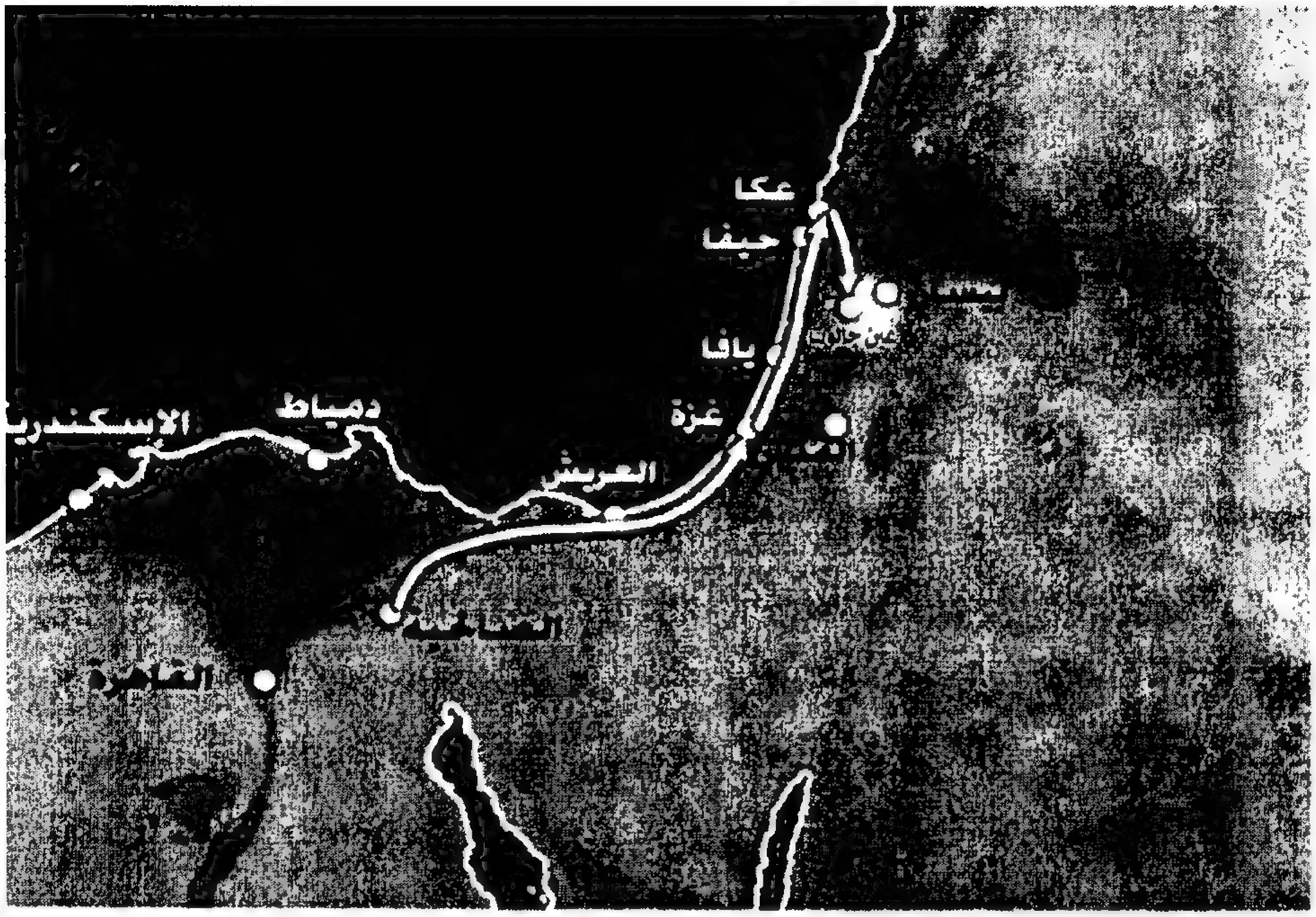
وأرسل هولاكو إلى زعيم المغول الخان الأعظم فأخبره بما حدث للمغول فى عين جالوت فأرسل له بإعطائه البلاد الواقعة من نهر جيحون حتى بلاد الشام كى يستعد لحرب المسلمين مرة أخرى وهذا لم يحدث.

ولم يمض عامان على موقعة عين جالوت حتى ذهبت نار تأجج المغول ودخلوا فى دائرة الخلاف والصراع فيما بينهم كسابق عهدهم قبل أن يوحدهم جنكيز خان واعتنق بركاى بن جوجى وابن عم هولاكو الإسلام وصار يدافع عن المسلمين ويقاتل هولاكو حتى هلك هولاكو.

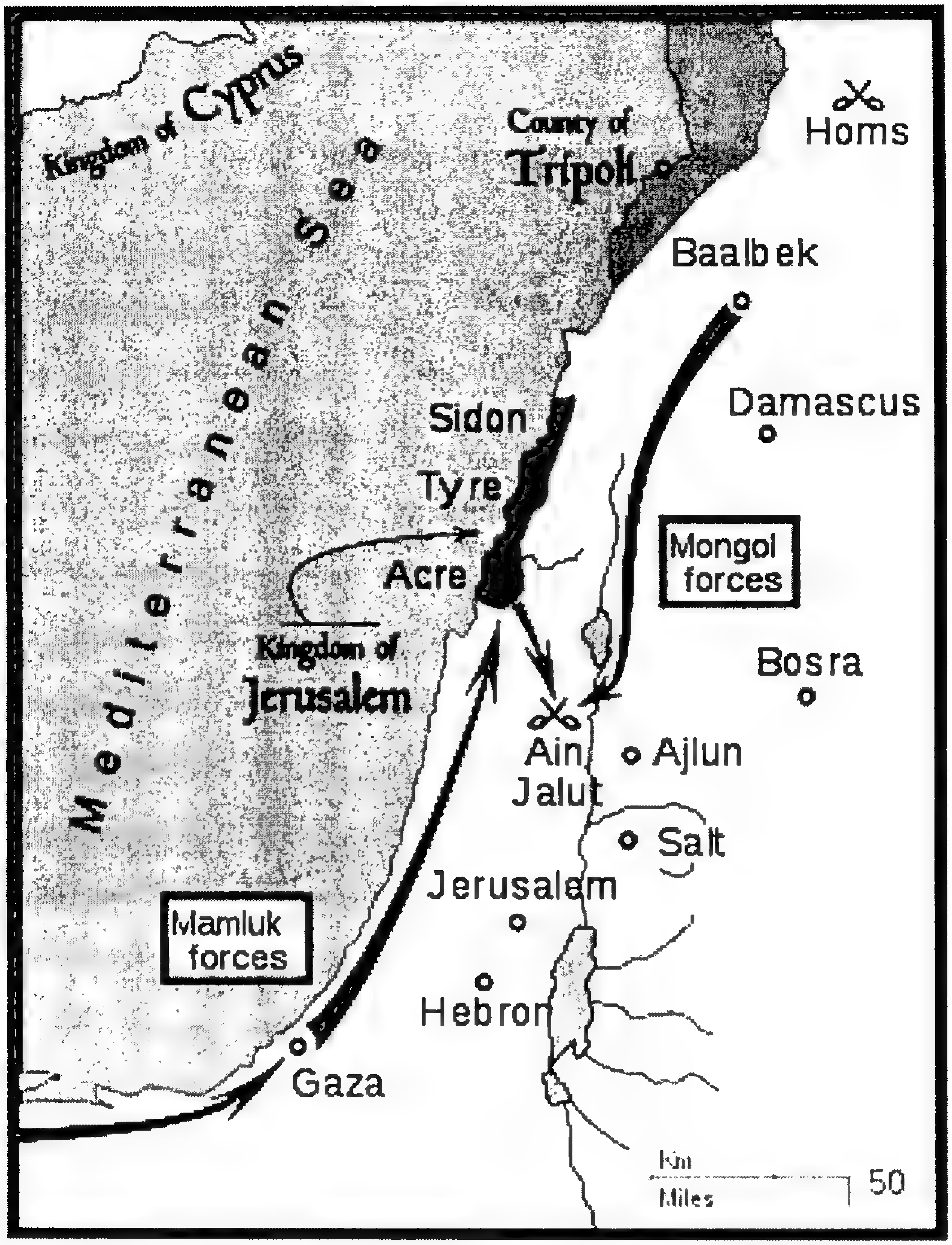
وتوفى هولاكو عام ٦٦٣هـ ـ ١٢٦٥م ولم يحقق حلمه بضمه مصر والشام إلى مملكته[١].

---

(١) اقرأ كتابنا «هولاكو المارد القادم من الشرق» ـ الناشر دار الكتاب العربى.



خط سير الجيش المصرى والمماليك إلى عين جالوت



خريطة توضح موقع عين جالوت فى فلسطين



خط سير جيش التتار المغول وجيش الإسلام إلى عين جالوت

7

بعد عين جالوت

- وصول قطز إلى دمشق بعد تحريرها وترتيب الأوضاع فى الشام بعد ضمها لدولة المماليك الجديدة.

ضم بلاد الشام لدولة المماليك الجديدة بعد خروج المغول منها

بعد النصر المبين على المغول فى عين جالوت يوم ٢٥ رمضان ـ كما ذكرنا ـ وهروب من بقى من جيش المغول التتر إلى مدن الشام تبعهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ومعه مجموعة من المقاتلين الذين شهدوا عين جالوت وأمعنوا فيهم القتل وظهر دين الله على أهل الكفر والملل الأخرى الذين ظاهروا التتر المغول.

قال ابن كثير فى البداية والنهاية عن تلك الأحداث: وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً، وكُبت أعداء الله وظهر دين الله وهم كارهون، ونصر الله دينه ونبيه ولو كره الكافرون، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان، وقتلت العامة فى وسط الجامع شيخاً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد يوسف الكنجى، كان خبيث الطوية ممالئاً لهم على أموال المسلمين وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥).

وهكذا تحررت بلاد الشام حتى دمشق من التتر المغول.

ووصل السلطان المظفر سيف الدين قطز إلى دمشق قائداً وسلطاناً منتصراً فى يوم الثلاثين من رمضان ٦٥٨هـ أى بعد أيام خمسة من النصر المبين فى عين جالوت واستقبله الناس هناك استقبال الفاتحين وهكذا ضمن بلاد الشام لدولة المماليك تحت زعامة الملك المظفر قطز، واستقرت الأوضاع فى تلك البلاد وحفظت الأعراض والأموال لكل الملل والأديان، وقام قطز بعزل القاضى الخائن الذى تعاون مع المغول التتر وهو قاضى دمشق

ابن الزكى وعـيَّن مكانه نجم الدين أبا بكر بن صـدر الدين بن سنى ورد المظالم التى فعلت زمن المغول.

وأرسل قطز مقدمة جيشه بقيادة بيبرس لتتبع الفارين من التتر فى مدن الشام الأخرى الشمالية فلحق بهم فى حمص وغيرها من البلاد الأخرى.

وفى خلال أسابيع قليلة تطهرت بلاد الشام من المغول التتر وتوحدت مع دولة مصر بعد عشر سنوات من الفرقة أى منذ أيام الملك الصالح الأيوبى ودعى لقطز على المنابر فى المدن المصرية والشامية كلها.

وقام السلطان قطز بترتيب أحوال البلاد الشامية وقسمها بين الأمراء المماليك الصالحية والمعزية وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشى الكردى، كما أنه أعـاد ملوك الأيوبيـين إلى ولاياتهم تحت حكم السلطان قطز ومنهم الأشرف موسى حاكم حمص الذى تعاون مع هولاكو، وقد رفض الاستجابة لقطز حين أراد حرب التتار، فأمنه قطز على عرشه وكذلك جعل الملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائباً له على حلب.

ثم وزع الإقطاعات الصغيرة فى المناطق الريفية على الأمراء الموالين له.

ومما أقره قطز على ملكه مع تابعيته له الملك المنصور ملك حماة وأعاد له مدينة المعرة، وأخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلى العزيزى أميراً بالساحل وغزة بعد أن انضم هذا الأمير لجيش قطز فى عين جالوت ثم أمر قطز بقتل حسين الكردى الطبرادار شنقاً لأنه هو الذى دل المغول التتر على الملك الناصر الذى وقع أسيراً فى أيدى التتر وقتله هولاكو بعد معركة عين جالوت[1].

وفى السادس والعشرين من شهر شوال عام ٦٥٨هـ توجه السلطان قطز للسفر إلى القاهرة.

---

(١) انظر السلوك للمقريزى.

مقتل السلطان قطز
على يد رفقاء السلاح والجهاد

كانت نهاية السلطان المظفر سيف الدين قطز مؤلمة جاءت بعد الانتصار الكبير والباهر على المغول التتر فى عين جالوت بأشهر قليلة فقد كانت المعركة فى أواخر رمضان ثم استكمل تحرير بلاد ومدن الشام ثم قفل راجعاً إلى القاهرة فى شهر ذى القعدة حيث قُتل فى الطريق فى بلدة القصير ـ وهى من قرى الشرقية وتعرف بالجعافرة ـ أى أنه قتل بعد نحو شهر وعشرين يوماً حيث كانت وفاته يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة عام ٦٥٨هـ رحمه الله.

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال البطل الكبير لكنه لم يصل إليها وفوجئ مَنْ بالقاهرة بوصول سلطان جديد وقد قتل السلطان المنتظر.

وكان مصير ونهاية قطز كما قال الشافعى رحمه الله:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف غبَّ ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

فقد كان مقتله على يد صديقه الذى أعطاه الأمان مع رفقاء آخرين ظن قطز أن لقاء العدو قد أزال أى خصومة بينهم، لكن الصراع على كرسى الملك أعمى البصر والبصيرة، ومهما فعل القاتل ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى أصبح بعد قتله لقطز سلطاناً على مصر وحقق إنجازات

كبرى للإسلام إلا أن قتله لقطز عندى لا يعادله ذنب[1].

(١) قاتل قطز هو ركن الدين بيبرس الذى أصبح الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى النجمى لقب بأبى الفتوح، رابع سلاطين الدولة المملوكية، بدأ مملوكا يباع فى أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين فى العصر الإسلامى الوسيط. لقبه الملك الصالح أيوب فى دمشق بـ «ركن الدين»، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر.

ولد بيبرس نحو عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢١م، حقق خلال حياته العديد من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ ومعركة عين جالوت انتهاء بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة ١٢٧٧.

وقد قضى أثناء حكمه على جماعة الحشاشين واستولى أيضاً على إمارة أنطاكية الصليبية، حكم بيبرس مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت واغتيال السلطان سيف الدين قطز من سنة ١٢٦٠م حيث خطب له بالمساجد يوم الجمعة ٦ ذى الحجة ٦٥٨هـ/ ١١ نوفمبر ١٢٦٠م وتوفى يوم الخميس ٢٧ محرم ٦٧٦هـ/ ٢مايو ١٢٧٧م (عمر ٥٤ سنة) بعد رجوعه من معركة الأبلستين ضد خانات المغول سنة ١٢٧٧م.

أحيا خلال حكمة الخلافة العباسية فى القاهرة بعدما قضى عليها المغول فى بغداد، وأنشأ نظماً إدارية جديدة فى الدولة.

اشتهر بيبرس بذكائه العسكرى والدبلوماسى، وكان له دور كبير فى تغيير الخريطة السياسية والعسكرية فى منطقة البحر المتوسط.

مختلف فى أصله، فبينما تذكر جميع المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركى من القبجاق (كازاخستان حالياً)، فإن بعض الباحثين المسلمين فى العصر الحديث يشيرون إلى أن مؤرخى العصر المملوكى من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك، وأنهم كانوا ينسبون أى رقيق مجلوب من مناطق القوقاز والقرم للقبجاق، وذكر المقريزى بأنه وصل حماة مع تاجر وبيع للملك المنصور محمد حاكم حماة لكن لم يعجبه وأرجعه، فذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وباعه هناك بثمانمائة درهم.

لكن الذى اشتراه أرجعه للتاجر لأنه كان فيه عيب خَلقى فى إحدى عينيه (مياه بيضاء)، فاشتراه الأمير «علاء الدين أيدكين البندقدار».

ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة السلطان الأيوبى الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة. وأعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة فصار أميراً.

كان بيبرس ضخماً طويلاً ذا شخصية قوية، وصوته جهورى وعيناه زرقاوان، ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطاً وكان شعار دولته «الأسد» وقد نقش صورته على الدراهم.

وعن أسباب قتل بيبرس وغدره بالبطل قطز أسباب وروايات كثيرة أقربها للصحة والتصديق عدم نسيان بيبرس لعدائه وحنقه على قطز لاشتراكه فى قتل أقطاى أستاذ بيبرس.

يروى ابن خلدون فى كتاب «تاريخ ابن خلدون» قصة مقتل الملك المظفر سيف الدين قطز:

«كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاى الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذى تولى قتله فكان مستريباً بهم. ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه. وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقيمون فيهم يومئذ بيبرس البندقدارى وأنز الأصبهانى وبلبان الرشيدى وبكتون الجوكندارى وبندوغز التركى.

فلما انهزم التتر فى الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاى. فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به فى طريقهم. فلما قارب مصر ذهب فى بعض أيامه يتصيد وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدم إليه «أنز» شفيعاً فى بعض أصحابه. فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم. ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وتبادروا إلى المخيم.

وقام دون فارس الدين أقطاى على بن المعز أيبك وسأل من تولى قتله منكم فقالوا بيبرس فبايع له واتبعه أهل المعسكر ولقبوه بـ «القاهر».

وبعثوا أيدمر الحلى بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك.

ووصل القاهر منتصف ذى القعدة من السنة فجلس على كرسيه ولكنه غيَّر لقبه إلى الظاهر خوفاً من شؤم لقب القاهر واستخلف الناس على طبقاتهم وكتب إلى الأقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الأمراء..».

حمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود.

وفى رواية أخرى: عندما انتهى قطز من حرب التتار وهزيمتهم وتحرير الشام قفل راجعا إلى مصر ولما بلغ بلدة «القصير» من أرض الشرقية بمصر بقى بها مع بعض خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضربت للسلطان خيمته، وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه فى النصر، وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء، وأشعل زملاؤه نار الحقد فى قلبه، فعزم على قتل السلطان، ووجد منهم عوناً ومؤازرة، فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، فابتعد عن حرسه ورجاله، فتعقبه المتآمرون حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان امرأة من سبى المغول فأجابه إلى ما طلب، ثم تقدم بيبرس ليقبل يد السلطان شاكراً فضله، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء، ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة، فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه، وانتهت بذلك حياة بطل عين جالوت.

وتواترت الأنباء فى مصر عن مقتل قطز، وأشاع المتآمرون أنه قد قتل متأثرا بجراح أصيب بها أثناء المعركة..

فخرج العامة ينتظرون الموكب بترقب فلما تبين لهم خلوه من قائدهم المحبوب قطز وتأكد لهم مقتله ساد الهم والكرب وحزن الناس عليه حزناً شديداً وأنفض جمعهم سريعاً دون احتفال.

ويقول ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة:

«فلما انقضت الوقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس هذا، يقتل من وجده منهم إلى حمص ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق وكان وعده بنيابة حلب فأعطاها قطز لصاحب الموصل فحقد عليه بيبرس فى الباطن واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية.

والذين اتفقوا معه: بلبان الرشيدى وبهادر المعزى وبكتوت الجوكندار المعزى وبيدغان الركنى وبلبان الهارونى وأنز الأصبهانى واتفقوا مع بيبرس على قتل الملك المظفر قطز وساروا معه نحو الديار المصرية إلى أن وصل الملك المظفر قطز إلى القصير وبقى بينه وبين الصالحية مرحلة ورحل العسكر طالباً الصالحية وضرب دهليز السلطان بها.

واتفق عند القصير أن ثارت أرنب فساق المظفر قطز وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه فلما أبعدوا ولم يبق مع المظفر غيرهم تقدم إليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده فى إنسان، فأجابه المظفر، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل أنز عليه وقد أشغل بيبرس يده وضربه أنز بالسيف وحمل الباقون عليه ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب إلى أن مات ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطانى فنزلوا ودخلوه والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا فقال فارس الدين الأتابك: من قتله منكم؟

فقال بيبرس: أنا.

فقال: يا خوند اجلس فى مرتبة السلطنة.

فجلس واستدعيت العساكر للحلف.

وكان القاضى برهان الدين قد وصل إلى العسكر متلقياً للملك المظفر قطز فاستدعى وحلف العسكر للملك الظاهر بيبرس وتم أمره فى السلطنة

وأطاعته العساكر ثم ركب وساق فى جماعة من أصحابه حتى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه.

وذكر المؤرخون أسباباً متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون: إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق، فأضمر ذلك فى نفسه.

ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبّت أقدامه فى السلطة كان سبباً فى إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، وأيّاً ما كانت الأسباب فإن السلطان لقى حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقُتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبى عنه فى تاريخه بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركمانى وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير وله اليد البيضاء فى جهاد التتار فعوض الله شبابه بالجنة ورضى عنه.

وقال قطب الدين اليونينى فى تاريخه الذى ذيله على مرآة الزمان بعدما ساق توجهه إلى دمشق وإصلاح أمرها إلى أن قال: وقُتل الملك المظفر قطز مظلوماً بالقرب من القصير وهى المنزلة التى بقرب الصالحية وبقى ملقى بالعراء فدفنه بعض من كان فى خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً. قال: واجتزت به فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة وترحمت عليه وزرته. وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه ونقله إلى غير ذلك المكان وعفى أثره ولم يعف خبره ـ رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام خيرا ـ قال: ولم يخلف ولداً ذكراً.

كان قتله يوم السبت سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

فعلى هذا تكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوماً واحداً فإنه تسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من سنة سبع وخمسين وستمائة وقتل فيما نقله الشيخ قطب الدين فى يوم السبت سادس عشر ذى القعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ رحمه الله وغفر له وأثابه خير الثواب وأسكنه فسيح الجنات.

ويقول ابن كثير فى «البداية والنهاية»:

لما عاد قطز إلى مصر تملأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابى والصالحية ودفن بالقصير، وكان قبره يزار. فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس، وكان لا يعرف بعد ذلك قتل يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة رحمه الله.

■ ■ ■

كلمة أخيرة
الأبطال لا يموتون

رغم مرور مئات السنين على مقتل البطل المظفر سيف الدين قطز سلطان مصر والشام وقاهرالمغول التتر إلا أن ذكراه مازالت حية نابضة مثل غيره من أبطال الإسلام الذين حقق الله على أيديهم الانتصارات وهم ولله الحمد كُثُرٌ.

لقد كان أهم أسباب النصر فى عين جالوت وغيرها من المعارك وجود القائد المسلم الذى تجرد عمله لخالقه وحبه لوطنه وأمته، فبرغم الصعاب التى واجهت قطز حيث إن فتنة الاختلاف كانت سائدة فى الديار المصرية وخاصة عند طائفة الحكام المماليك منذ مقتل توران شاه ثم شجرة الدر ثم المعز أيبك وأقطاى ثم قدوم الغزو التترى إلا أنه استطاع توحيد الصفوف بعد اعتلائه عرش السلطنة، فأصدر العفو العام عن المماليك البحرية التى تسببت فى تلك الفتنة من بدايتها وفرت إلى بلاد الشام وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس ودعاهم قطز بالقدوم آمنين إلى مصر كى يواجهوا ويشتركوا فى الجهاد ضد عدو الأمة والحضارة المغول التتر.

فكانت خطوة العفو عن المماليك البحرية أهم خطوات نحو النصر وفى حياة قطز أيضاً حيث إنها انتهت بمقتله، وحياة المماليك قائمة على الغدر والاغتيالات إلا أن قطز ضحى بحياته فى سبيل دينه وأمته الإسلامية.

ومن أسباب النصر أيضاً قيام قطز بترتيب الوضع الداخلى فى مصر وتجهيز الجيش من أموال الأغنياء والمماليك وبدأ بنفسه.

وحاول قطز توحيد الصفوف مع أمراء الشام من الأيوبيين ولكن

محاولاته لم تفلح لأن كل أمير أيوبى رفض الوحدة مع قطز بوصفه مملوكاً تابعا للدولة الأيوبية وارتضى بعضهم الانضمام لهولاكو وعدم الوحدة مع المماليك بمصر إلا أن بعضهم انضم إلى قطز حين دارت رحى الحرب فى عين جالوت وعفا عنهم قطز وولاهم الإمارات التى كانت تحت أيديهم.

ومن الأمور الهامة التى أحدثها قطز هو تجرده لله عز وجل والسعى وراء هدفه الأسمى فكان القدوة لمن حوله من المماليك وعامة الشعب والجنود.

لقد فقه قطز رحمه الله الحقيقة الرائعة وهى أن الحياة بعزة ولو ساعة، خير من البقاء أبد الدهر فى ذل وهوان.

ماذا كان ردّ فعل الأمراء؟

ولا شك أن الأمراء والوزراء لما شاهدوا قطز رحمه الله بهذه الحمية تحمست قلوبهم.

إن القائد مهما قام بجولات بين جنوده وقواده وشعبه يحمسهم ويشجعهم، لكنهم يعلمون أنه عند الضوائق والشدائد لن يجدوه معهم، بل سيؤمِّن نفسه وأحبابه فقط، ويترك جنوده وشعبه لمصيرهم، فإن هذه الجولات وهذه الخطب لا تؤثر شيئاً فى الناس وقدوتنا العظمى فى القادة الذين يعيشون هموم شعبهم، ويشاركونهم فى كل صغيرة وكبيرة هو رسول الله ﷺ.

روى البخارى عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبى ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبى ﷺ، وقد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: «لن تراعوا، لن تراعوا»، وهو على فرس لأبى طلحة، عُرْى ما عليه سرج، فى عنقه السيف، فقال: لقد وجدته بحراً لقد سمع الرسول ﷺ صوتاً مفزعاً فى الليل وهو فى المدينة، فما أمر أحداً بالخروج للبحث عن مصدر

الصوت، مع أنه قائد المدينة المنورة ورسول المسلمين، وكان خروجه سريعاً حتى إنه استعار فرساً من أبى طلحة ولم ينتظر وضع السرج عليه، ولكنه فقط أخذ سيفه، وركب الفرس، وانطلق يبحث عن مصدر الصوت، ولما اطمأن أنه لا شيء يهدد المدينة عاد إليها وقد خرج الناس فزعين فإذا هو يطمئنهم: «لن تراعوا»، أى لن تفزعوا، ثم قال كلمة يثنى فيها على الفرس الذى كان مشهوراً بالبطء، فقال: «لقد وجدته بحراً» أى سريعاً فى الجرى.

يقول ثابت أحد رواة الحديث كما جاء فى سنن ابن ماجه: «كان فرساً لأبى طلحة رضي الله عنه يُبَطَّأ (يُتَّهم بالبطء) فما سُبق بعد ذلك اليوم.

لقد كان الرسول ﷺ يعيش هموم شعبه، ويفتديهم بروحه، ويضحى بنفسه من أجلهم، ولا يفعل مثلما يفعل كثير من الزعماء!!

يروى الإمام أحمد رحمه الله عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال:

كنا إذا احمرَّ البأس (اشتدَّت الحرب)، ولقى القومُ القومَ، اتقينا (احتمينا) برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد «أدنى من القوم منه».

وهكذا فعل قطز رحمه الله مع الأمراء والقواد حين قال لهم: «أنا ألقى التتار بنفسى».

فالحاكم القدوة يعيش مشاكل وهموم شعبه ويعيش من أجلها.

لقد أدرك قطز رحمه الله أن أمن مصر يبدأ من الحدود الشرقية، وبالتالى لا أمان وهناك احتلال لدولة الجوار فى فلسطين، فأمن مصر القومى يبدأ من حدودها الشرقية وليس من داخل البلد نفسه، العقل يؤكد أنه من المتوقع جداً أن تنتهز هذه الدولة المعادية أى فرصة ضعف، وتجتاح مصر من شرقها، وتأخذ سيناء فى أيام معدودات، وتهدد مصر فى عمقها، فلابد إذن من إضعاف الجيش المعادى الرابض فى فلسطين.. هذا هو التفكير العقلى والمنطقى.

فمن الأفضل عسكرياً أن ينقل قطز المعركة إلى ميدان خصمه، فإن ذلك سوف يؤثر سلباً على نفوس أعدائه، كما أنه سيوفر له خط رجعة آمناً إذا حدثت هزيمة للجيش المسلم، أما إذا حدثت الهزيمة للجيش المصرى المسلم فى داخل مصر، فإن ذلك سيفتح الطريق أمام العدو إلى القاهرة.

ومن الأفضل عسكريّاً، كذلك أن يمتلك المسلمون عنصر المفاجأة، فيختاروا هم ميعاد المعركة ومكانها بدلاً من أن يختار العدو ذلك، والمسلمون إذا فاجأوا عدوهم فإن هذا يعطيهم أفضل الفرص للنصر، لأن الجيش المعادى لن يكون مستعداً الاستعداد الكافى، هذا إلى جانب الهزيمة النفسية التى ستلحق به.

وأدرك أن للمسلمين فى مصر دوراً هامّاً ناحية إخوانهم المسلمين فى فلسطين وفى سورية وفى لبنان وفى العراق وفى أفغانستان وفى أذربيجان وفى الشيشان، ولا يستقيم أن تُقام المذابح للمسلمين فى تلك البلاد، وتُنتهك الحرمات، وتُهدم الديار، ولا يتحرك المسلمون فى مصر.. إن حركة المسلمين فى مصر لنجدة إخوانهم فى فلسطين وغيرها ليست فضلاً أو نافلة، إنما هى فرض عليهم.

إن انتهاك حرمات المسلمين فى بلد ما، وسكوت المسلمين فى البلاد الأخرى عن هذا الانتهاك جريمة كبرى، ومخالفة شرعية ولذلك فإن قطز رحمه الله ذهب لنجدة أهل فلسطين وسورية وغيرهما، حتى لو لم يفكر التتار أصلاً فى غزو مصر.

فليس من المبالغة القول بأن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية والسياسية والعقيدية والحضارية فبعدما يقرب من مضى قرن على معركة حطين الفاصلة مع الصليبيين أجرى التاريخ نزالاً لا يقل حسماً بين قوتين متقابلتين: الإسلام والوثنية، التحضر والجاهلية، وكان انتصار المسلمين يعنى انتصارا على الوثنية، والتحضر على الجاهلية.

ومؤشرات الثقة بالنفس والإيمان بالنصر والقدرة على تجاوز الهزائم والنكسات والتى كادت تصل بالمسلمين إلى نقطة الصفر، جاءت هذه المعركة المباركة لكى ترتفع بها ثانية صوب المكانة المناسبة للمسلمين فى العالم.

وكانت المعادلة الواضحة التى لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها فى تكافؤ متقابل: الأخذ بالأسباب، والإيمان الواثق العميق بالله وبعدالة القضية التى يجاهد المسلمون من أجلها، وبدون تحقق هذا التقابل فل يكون هناك نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش، فإن مجرى التاريخ الإسلامى الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشواهد على هذا الذى تعرضه عين جالوت علينا.

وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزى المعاصر ستيفن رنسيمان فى كتابه الحروب الصليبية يقول: «تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة فى التاريخ.. ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ فى عين جالوت من قرار.

فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له».

فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقى للمسلمين فى العالم دولة كبيرة شرقى بلاد المغرب، ومع أن المسلمين فى آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم.

ولو انتصر كتبغا، لازداد عطف المغول على النصارى ولأصبح للنصارى السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة فى العصر السابق على الإسلام.

على أنه من العبث أن نفكر فى الأمور التى قد تحدث وقتئذ، فليس للمؤرخ إلا أن يروى ما حدث فعلاً إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطة

المماليك بمصر القوة الأساسية فى الشرق الأدنى فى القرنين التاليين، إلى أن قامت الدولة العثمانية..

فما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامى وإضعاف العنصر النصرانى لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا فى غرب آسيا على اعتناق الإسلام. وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية، لأن المسلمين المظفرين، حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون، أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين.

ومهما يكن من أمر فإن المعركة الفاصلة حققت وحدة بين مصر والشام كانت ذات قيمة استراتيجية كبيرة فى صراع الإسلام ضد خصومه التاريخيين.. إذ أصبحت الدرع التى تقى المسلمين هجمات المغول الشرسة، ويمكن فى الوقت نفسه من مجابهة التحدى الصليبى ومحاولة استئصال وجوده من الأرض الإسلامية وهذا ما حدث فى عصر ركن الدين بيبرس الذى تلى عصر قطز.

وأهم إنجازات معركة ونصر عين جالوت تحقق الوحدة بين مصر والشام كله تحت حكم قائد واحد وهذا الإنجاز قد تحقق عقب المعارك الفاصلة فى تاريخ الأمة، إنها الوحدة نفسها التى سعى عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما لكى يبنى عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس.

وها هى معركة عين جالوت تشد العزم مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التى سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم إلى إحدى اثنتين: الإذعان لكلمة الإسلام أو العودة من حيث جاؤوا.

وملأت المعركة الفراغ المخيف الذى كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، فأتاحت للقيادة المملوكية

الشابة أن تعوض عالم الإسلام عما فقدَ هناك، ولهذا أقام بيبرس الخلافة العباسية الرمزية فى مصر.

ومن إنجازات عين جالوت ظهور الحضارة الأوروبية فيما بعد، فالمعركة خدمت أوروبا نفسها وحفظت مدنيتها، كما يرى بروان وغيره، وهذا حق، فإن المغول كانوا يطمحون لغزوها وتخريبها، ولكن تقليم أظافرهم فى عين جالوت، فضلاً عن عوامل أخرى صدهم عن المضى فى الطريق إلى نهايته، فقد خمد تأجج المغول بعد هذه المعركة الهامة.

والمعركة حققت للحركة الحضارية الإسلامية القدرة على مواصلة المسير، وعلى أن تتجاوز محنة الدمار والتخريب الذى شهدته بغداد.

ففى مصر والشام والمغرب حدث المزيد من العطاء وتتحقق بالإبداع فى جوانب عديدة وساحات شتى، وليس كما يقال من أن عالم الإسلام دخل عصر الظلمة بعد سقوط بغداد، فابن خلدون وابن كثير وابن تيمية وأبو الفدا والسيوطى والسخاوى وابن القيم والجزرى وغيرهم كثيرون، كانوا نتاج تلك المعركة الكبرى.

لقد تحقق الكثير للمسلمين من النصر فى عين جالوت، كما تحقق لهم فى المعارك الكبرى الفاصلة فى تاريخ الأمم، فهى معركة حققت المكاسب للعالم كله.

نسأل الله العظيم أن يتقبل منا عملنا هذا وسائر أعمالنا وأن يجعلها فى ميزان حسناتنا يوم القيامة، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

أهم المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ الوطن العربى والغزو الصليبى ـ د. خاشع المعاضيدى وآخرون.

٥ ـ المغول ـ السيد الباز العرينى.

٦ ـ مرآة الجنان ـ أبو محمد بن عبدالله اليافعى.

٧ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ القلقشندى.

٨ ـ تاريخ مختصر الدول ـ ابن العبرى.

٩ ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ستيفن راينسمان ـ ترجمة السيد الباز العرينى.

١٠ ـ قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ـ أحمد مختار العبادى.

١١ ـ الأعلام ـ للزركلى.

١٢ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير.

١٣ ـ الذيل على الروضتين ـ أبو شامة.

١٤ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ للمقريزى.

١٥ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ جمال الدين بن واصل.

١٦ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان.

١٧ ـ المختصر فى أخبار البشر ـ لأبى الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل.

١٨ ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ العينى.

١٩ ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ للمقدسى.

٢٠ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ للمقريزى.

٢١ ـ هولاكو مارد قادم من الشرق ـ منصور عبد الحكيم.

٢٢ ـ يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء ـ منصور عبد الحكيم.

٢٣ ـ الكامل فى التاريخ ـ لابن الأثير.

٢٤ ـ تاريخ فاتح العالم ـ عطا ملك الجوينى.

٢٥ ـ الدولة الخوارزمية والمغول ـ حافظ أحمد حمدى.

٢٦ ـ جامع التواريخ ـ رشيد الدين فضل الله الهمذانى.

٢٧ ـ جنكيز خان قاهر العالم ـ رينيه غروسيه ـ ترجمة خالد أسعد.

٢٨ ـ الظاهر بيبرس ـ بيتر توراو ـ ترجمة محمد حديد.

٢٩ ـ العبر فى أخبار من غبر ـ للذهبى.

٣٠ ـ العز بن عبد السلام ـ للزحيلى.

٣١ ـ فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ـ قاسم عبده قاسم.

٣٢ ـ قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ـ د. راغب السرجانى.

٣٣ ـ مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ـ سعيد عبد الفتاح عاشور.

٣٤ ـ المظفر قطز ومعركة عين جالوت ـ بسام العسلى.

٣٥ ـ قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ـ د. أحمد مختار العبادى.

٣٦ ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ـ محمد ماهر حمادة.

٣٧ ـ المماليك ـ د. السيد الباز العرينى.

٣٨ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ـ محمد أحمد النسوى.

٣٩ ـ سقوط الدولة العباسية ـ د. سعد الغامدى.

٤٠ ـ واإسلاماه ـ على باكثير.

٤١ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ لابن خلدون.

٤٢ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ لابن أبى إياس.

٤٣ ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبى.

الكاتب فى سطور

منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل

حاصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٧٨ جامعة عين شمس.

من مواليد القاهرة ١٩٥٥.

يعمل بالمحاماة والكتابة فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية وله العديد من الإصدارات والمقالات والأبحاث فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات على الفضائيات العربية وترجمت بعض كتبه للغتين الانجليزية والأردية (إحدى لغات الهند).

وعدد الكتب التى صدرت له حتى عام ٢٠١٠ ـ ١١٧ كتاباً متنوعة أثرت المكتبة العربية والإسلامية.

بعض كتب صدرت للمؤلف

- جنكيز خان إمبراطور الشر
- هولاكو مارد من الشرق
- السلطان عبد الحميد الثانى آخر السلاطين المحترمين
- تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواد
- مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر
- الحجاج بن يوسف الثقفى طاغية بنى أمية
- عمرو بن العاص داهية العرب
- خالد بن الوليد قاهر الأكاسرة والقياصرة
- هارون الرشيد الخليفة المفترَى عليه
- صلاح الدين المنقذ المنتظر
- جبريل عليه السلام أمين الوحى الإلهى
- عزرائيل ملك الموت
- مالك خازن النار - النار وأهوالها وأهلها
- رضوان خازن الجنة، ووصف الجنة وأهلها
- القرين العدو الحقيقى للإنسان

- الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان
- هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية
- بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان
- بلاد الشام أرض الأنبياء والنبوءات
- العراق أرض النبوءات والفتن
- نيويورك وسلطان الخوف
- الامبراطورية الأمريكية ـ البداية والنهاية
- من يحكم العالم سراً
- السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان
- يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء
- تنبوءات نوستراداموس ومخططات اليهود
- البداية فتن والنهاية ملاحم
- العالم رقعة شطرنج
- أقدم تنظيم سرى فى العالم
- عشرة ينتظرها العالم
- أسرار الماسونية الكبرى
- أوراق ماسونية سرية للغاية

- زوجات الانبياء والرسل
- بيوت الرسول والصحابة حول المسجد النبوي
- بنات الصحابة
- النساء المبشرات بالجنة
- النساء المبشرات بالنار
- طارد الجن
- مواجهة الجن
- المهدى المنتظر آخر الخلفاء الراشدين
- نهاية دولة إسرائيل ٢٠٢٢
- شهداء الصحابة
- نساء أهل البيت
- دعوة للزواج
- موائد الشيطان
- الأعشاب والجن
- الحرب العالمية الثالثة قادمة
- نهاية ودمار أمريكا وإسرائيل
- الفراسة فى معرفة الآخرين

- ازدراء وإيذاء الأنبياء
- المهدى فى مواجهة الدجال
- السفيانى صدام آخر على وشك الظهور
- اسرائيل وأهوال القيامة
- مؤمرات وحروب صنعتها الماسونية
- حكومة الدجال الماسونية الخفية
- مناسك الحج والعمرة
- واقتربت الساعة
- الثالوث الغامض ـ برمودا ـ اطلنتس ـ الاطباق الطائرة
- الحياة الأخرى
- عالم السحر والسحرة والمسحورين
- اصحاب البروج فى مواجهة أصحاب الكهوف
- دولة فرسان مالطا وغزو العراق
- أحب الاعمال الى الله
- الحرب العالمية الأخيرة قادمة
- جهنم فى الديانات السماوية
- سلالات وعائلات ومنظمات تحكم العالم

■ القادمون ـ التمهيد لقدوم الدجال جـ ١

■ القادمون ـ الدجال فى مواجهة الوحى الإلهى جـ ٢

■ القادمون ـ المسيح في مواجهة الدجال جـ ٣

■ ابناء فى الجنة واباء فى النار

■ بر الوالدين وصلة الرحم والعقوق

■ وكتب أخرى متنوعة

تطلب من دار الكتاب العربى بالقاهرة ودمشق من موقع الدار على الإنترنت.

فهرس المحتويات